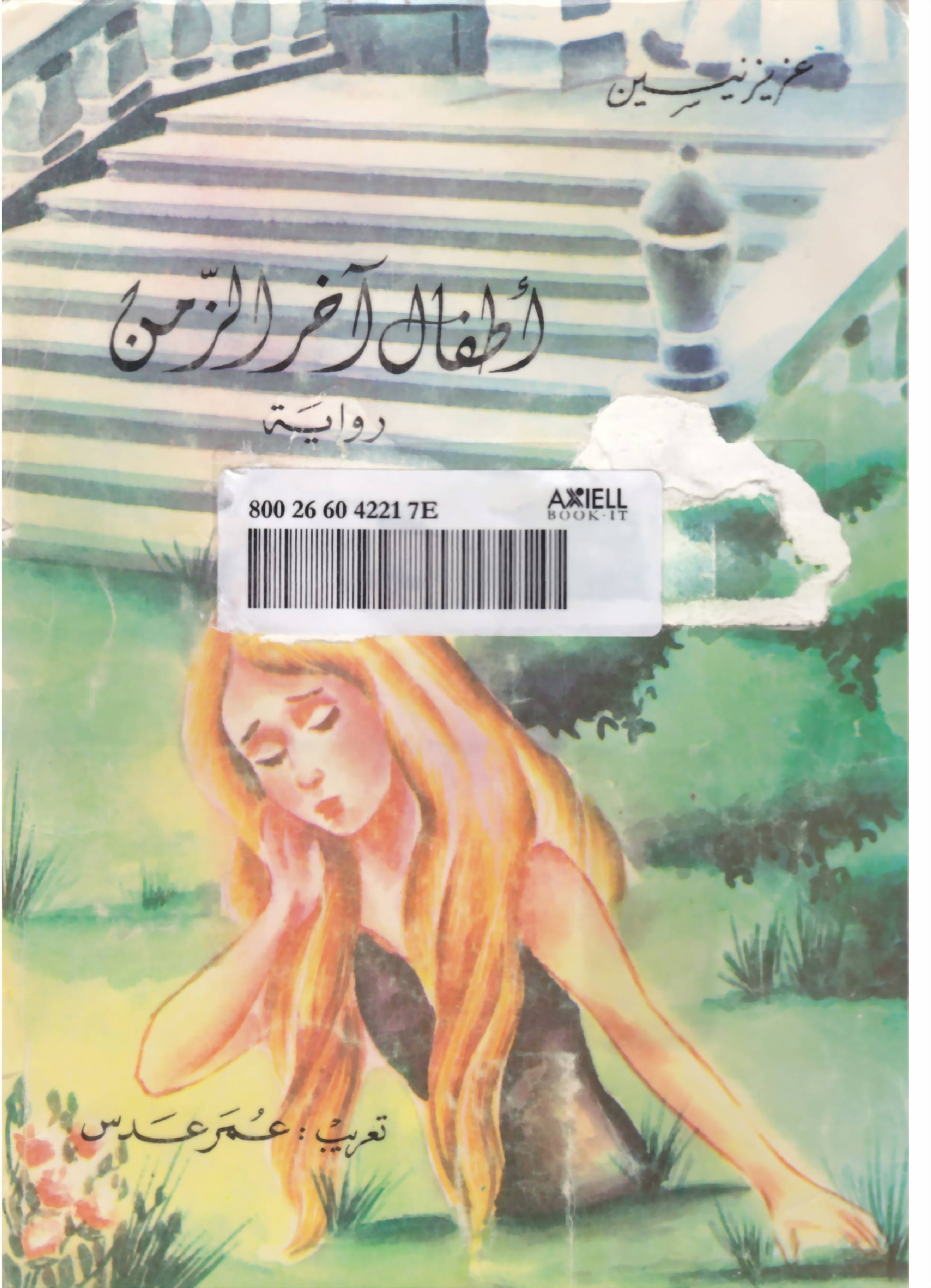


عزيز نيسين

أطفال آخر الزمن

رواية

تعريب: عمر عدس

Hsg

Ex.

NESIN

Atfal akhir al-zaman

أطفال آخر الزمن

○ أطفال آخر الزمن
○ رواية الكاتب التركي الكبير عزيز نيسين
○ ترجمة : عمر عدس
○ الناشر : دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص.ب ٤٦٤٨ - تلفون ٤١٥٠٨٩
○ الطبعة الأولى - دمشق ١٩٨٨

○ ١٩٨٨/٢٠٠٠

عزيز نيسين

أطفال آخر الزمن

رواية

تعريب : عمر عدس

دار الجليل

في الفاتح من أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٦٦ صدرت صحيفة (يني اسطنبول) وهي تحمل على صدر صفحتها الأولى العنوان البارز التالي:

لو كان للأطفال أن يوقعوا العقوبات

وكان أصل الخبر أن معلماً في إحدى المدارس الابتدائية كان قد كلّف طلاب الصف الثاني بكتابة موضوع الإنشاء التالي:

«**لو كنتم آباء، وكان آباؤكم أطفالاً لكم فكيف تعاقبونهم حين تصدر عنهم إساءة؟**».

أجاب معظم الأطفال عن هذا السؤال، إجابات طريفة تدلّ على طراز التربية الأسرية التي يتلقونها، وتشير إلى الطريقة التي تجري معاملتهم بها في الأسر المختلفة من حيث طريقتها في التربية، ومن حيث وضعها المادي.

... ويستنتج المرء من مجموع الإجابات أن العقوبة الموقعة على الأطفال في بيوتهم هي عقوبة صارمة، وأن عدم التناسب بين الذنب والعقوبة يخلف في نفوسهم آثاراً غير مرغوبة، ويعكس آثاره دون شك في حياتهم المستقبلة.

كتب أحد الأطفال الجمل التالية بعفوية تامة:

«أركب والدي على حصان أعرج، وأغطي وجهه بملاءة، وأعلق على الملاءة سكّيناً، حتى إذا راح الحصان يسير وهو يعرج، ظلّ طرف السكين ينقر رأس والدي إلى أن يستخرج دماغه!».

وكتبت طفلة يتيمة الأم: «أحرم والدي من الخروج للنزهة».

وكتب طفل أبوه بياع لبن: «أحبس والدي في حظيرة الغنم».

وعلى العموم، فإن الأطفال الذين كانوا ينتمون إلى أسر متعلمة مستنيرة قد اقترحوا على والديهم عقوبات يسيرة. أمّا الأطفال الفقراء فقد تخيلوا عقوبات قاسية خالية من الرحمة.

خلّف هذا الخبر أثراً كبيراً بين الأسر المختلفة، وراح الآباء والأمهات ومدراء المدارس والمعلمون في المناطق المحيطة يناقشونه ويبحثون فيه لمدة تزيد على الشهور...

فكر أحد رواد الثقافة والتربية في أن يستفيد من آراء الأطفال في اختيار الأب والأم المثاليين فطرح سؤالاً بالمضمون التالي:

«هل أنت راضٍ عن والديك؟ وإذا لم تكن راضياً فما هي الصفات التي ترى أن على الوالدين المثاليين أن يتحليا بها؟».

ووزع هذا السؤال على جميع تلاميذ المرحلة الابتدائية، في مسابقة يشترك فيها الراغبون منهم.

كانت النتيجة أنه من بين (٣٥٠٠) تلميذ وتلميذة شاركوا في المسابقة، أجاب (٢٣٥٠) منهم بأنهم يحبون والديهم مع أنهم لا يعتبرونهم مثاليّين. وأجاب (١٥٠) فقط بأنهم لا يرون فرقاً بين والديهم والوالدين المثاليّين.

وقد تبيّن بعد دراسة إجابات التلاميذ أن صفات الوالدين المثاليين في نظرهم هي:

١ ـ يجب أن يكون الوالدان المثاليان صديقين لأطفالهما، زيادة على دور الأبوة والأمومة.

ومن بين (٣٥٠٠) طفل كان هنالك (١٥٧٠) فقط يتمتعون بصداقة والديهم، أما البقية فيشعرون بالغربة عن والديهم ولا يجرؤون على البوح لهم بأسرارهم الخاصة.

٢ ـ يجب على الأب المثالي والأم المثالية، أن يتمتع كل منهما بأعصاب سليمة قوية...

ولعله مما يثير العجب، أن (٧٨٠) طفلاً فقط، لم يشكوا من ضعف أعصاب أمهاتهم، أما البقية فقد كان يحزّ في نفوسهم ويقلقهم تذمّر أمهاتهم الدائم، وقد كتب هؤلاء أنه لا شيء أسوأ من وجه أب عابس أو أمّ متجهمة.

٣ ـ على الأب المثالي والأم المثالية أن يكون كل منهما حسن الهندام والمظهر.

وقد عبرت التلميذات جميعاً وعدد من التلاميذ، عن وجهات نظرهم في مسألة

لباس والديهم، كما اعتبروا نظافة الوالدين شرطاً أساسياً من شروط الأبوة والأمومة الصالحة.

٤ ـ أشار العديد منهم إلى أن إحدى الصفات الأساسية للوالدين المثاليين أن يكون الواحد منهم ذكياً ذا عقل راجح، غير معتاد على التدخين أو تعاطي المشروبات الكحولية.

○ حقيقــة

أيها القارىء العزيز، لا شك أن أطفالك يحملون أفكاراً كهذه، ومن الجائز أن لا تكون من بين الوالدين المثاليين. بل ما أقرب أن تكون من تلك المجموعة من الآباء والأمهات، التي تسبب لأنجالها الضيق والقلق بسلوكها وسيرتها في الحياة.

فلا تركن إلى أن أنجالك يحبونك وتكتفي بذلك، فحب الأب وحب الأم غريزة طبيعية، حتى الحيوانات تمتلكها إلى هذا الحدّ أو ذاك.

أنظر إلى الأرقام الواردة أعلاه: إنه من بين (٣٥٠٠) طفل شاركوا في المسابقة، هنالك (١٥٠) طفلاً فقط راضون عن والديهم رضاً كاملاً.

ألا تريد أن تفكر بهذه القضيّة، وتحاسب نفسك لترى عيوبك والنواقص التي فيك؟

أليس الأفضل أن تضبط أعصابك وتتحكم في انفعالاتك، وتعامل أنجالك معاملة أكثر وداً وحميميّة؟

عندما يقترب منك طفلك طالباً عونك في حلّ واجباته المدرسية، هل تستطيع أن تتناسى تعبك اليومي، وهموم حياتك، وتستجيب له بمحبّة وحنان؟

لا تنسى أن طفلك في حاجة للمحبة والعطف، فمن سواك يستطيع أن يمنحه إياهما؟ إنك لطفلك دنياه الثمينة فالبس نظيف الثياب، ولا تدعه يراك إلاّ جميلاً ناصعاً.

أيتها الأمّ، إيّاك أن تظلّي في البيت رائحة غادية أمام أطفالك بشعر غير مرجّل ولباس متّسخ وجوراب مهلهل. كوني مع طفلك مثل صديق، وعامليه بحب الصديق وحرارته. إياكِ أن تكوني مع أطفالك صارمة على الدوام وابتعدي عن العجرفة والتسّلط. إن هذه المعاملة تقتل في قلب الطفل وروحه النشاط والفرح وتخمدها إلى الأبد.

إن هذه الرواية، وإن كانت قد كتبت بشكل روائي، إلاّ أنها دروس مرتبطة بهذه الخصال الطيبة والخصال القبيحة. وهي ليست للأطفال وحسب باعثاً للمرح، بل إنها للكبار، للآباء والأمهات، للمعلمين ولكل من يحترمون الحياة الأسرية ويحبونها،

خواطر عذبة تبعث التسلية وتحمل الموعظة.

اقرأها بنفسك... وانصح صغارك بأن يقرأوها، تقبّل محاسنها وانبذ مفاسدها، وكما يقول المثل: «ممن تعلمت الأدب؟ ممن لا أدب لديهم».

○ الرسالة الأولى

أنقرة ١٢ / أكتوبر / ١٩٦٦

أخي أحمد، ربما تذكر - أنني عندما أردت أن أغادر (اسطنبول)، كنت قد قلت لك: «سوف أكتب لك باستمرار»، ولكنك يومئذ استبعدت أن أفعل ذلك وقلت:

«ستجدين في (أنقرة) أصدقاء غيرنا وتنسيننا».

ها أنا ما نسيتك، وها أنا أفي بما كنت وعدتك به. فإذا كانت رسالتي إليك قد تأخرت قليلاً، فليس ذلك إلاّ لانشغالي بأمور السفر.

منذ عدّة أيام ونحن مشغولون بتنظيم المنزل، وقد انقضت عدة أيام حتى استطعت أن أسجّل للدراسة في إحدى المدارس هنا.

وعندما أحسست بالاستقرار، كان أول عملٍ قمت به هو أنني كتبت رسالة إليك. ويعلم الله أنني لم أكن راغبة يوماً في الابتعاد عنكم. فقد أمضيت بينكم أربع سنوات، ونحن نرتقي من صف دراسي إلى آخر دون أن نفترق، وتجمعنا زمالة الدراسة والألفة والمحبّة.

ولكن عندما انتقل والدي إلى (أنقرة)، لم يكن أمامي إلاّ أن أغادر ذلك المحيط الدافيء الحميم... عندما كنت ما أزال في (اسطنبول) كنت قد أخبرتك، بأن أصدقاء والدي قد عثروا له على عمل جيد في (أنقرة).

يعمل والدي مع ثلاثة من أصدقائه القدامى، في شركة تجارية واحدة، كما يسكن ثلاثتهم في بناية واحدة. وعند كل منهم بضعة أطفال.. حيث نكون في مجموعنا تسعة أطفال نعيش في نفس البناية. ويدرس خمسة منا في مدرسة واحدة، كما أنني مع اثنين من هؤلاء الأطفال في صفّ واحد... أمّا أخي (متين) فقد كوّن صداقات جديدة من بين أطفال البناية.

ربما تذكر أننا كنا قد اتفقنا على أن يكتب كل منّا للآخر، عن كل ما يقع له من أحداث، حلوها ومرّها. وكما تعلم فإنني ما أزال جديدة هنا، فلم أصادف من الأحداث بعد، ما يستحق الكتابة عنه. ولكن، من الطبيعي أنني سأصادف في الفترة اللاحقة، في مدينة كبيرة كهذه، كثيراً من الأحداث الطريفة والمهمة، وسوف أكتب لك عنها.

آمل منك بدورك أن تفي بما وعدت به. فتردّ على رسالتي على الفور، وتكتب لي

مفصلاً عن كل ما وقع بعد سفري، فأنا لم أنس أصدقائي وصديقاتي في مدارس (اسطنبول). وأرجو أن تبلغهم سلامي... أتمنى لكم التوفيق جميعاً.. وأنا في انتظار رسالتك.

صديقتك، زميلة صفك

(زينب يالكر)

○ كل ما تعلمتوه إلى الآن... أطعموه للنسيان!

صديقتي العزيزة (زينب). لقد فرحت كثيراً باستلام رسالتك. أحيّي فيك تذكرك لأصدقائك، فهذه هي الصداقة الحقة...

عندما رحلتِ عنّا قال الكثيرون «لقد رحلت زينب ولن تلتفت إلينا بعد الآن». وحين تأخرت رسالتك ظنوا أنهم على حق فراحوا يسخرون منّي. ولكنني الآن، أستطيع أن أرفع رأسي بينهم وأواجههم دون خجل.

لقد قرأت رسالتك على الجميع، وفي المدرسة داخل غرفة الصف. وقد سرّتهم جميعاً، وطلبوا مني أن أبلغك السلام.

ها أنا الآخر أفي بوعدي.. واستفتح بالكتابة لك عمّا لا يسرّ. لقد صادفنا بعد سفرك حدثاً ساءنا جميعاً. فقد تمّ نقل معلمنا إلى منطقة أخرى. تذكرين كم كان لطيفاً محباً لنا. تضايق التلاميذ جميعاً حين دروا بالخبر. وفي اليوم المقرّر لرحيله عنا، وعندما كان يودعنا، حاولت بجهد جهيد أن أحبس دموعي... ولكن عندما خرج من الصف ومسح بيده على شعري مداعباً، لم أستطع التماسك وانخرطت في البكاء والعويل... وقد بكى هو الآخر وانحدرت من عينيه بضع قطرات من الدموع.

أمّا معلمنا الجديد... ما شاء الله... فقد أراد منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها الصف أن يكبح جماحنا، ويؤكّد وجوده، فراح ينادينا واحداً واحداً ويخرجنا إلى (اللوح)، ويوجه إلينا الأسئلة. ولكن إجابة أي منّا لم تعجبه، بل ظل طوال الوقت، يواجهنا بذلك التعبير الخاص المرتسم على وجهه، وكأنه عالم يبدي آيات التأثر والأسف.. ثم قال:

«أسفاً على ذلك العمر الذي أضعتموه هباءً! ماذا كنتم تفعلون في السنوات السابقة؟».

هل تذكرين زميلنا (دمير)؟ إنه من أفضل طلاب لدينا! ولا يستعصي على فهمه أي شيء مكتوب في الكتب المدرسية. تضايق (دمير) من كلام المعلم كثيراً، فنهض من مقعده وقال:

«أستاذ.. إنني لم أخطيء في إجابتي خطأ واحداً». ولكن المعلم أجلسه بإشارة من يده وقال:

«إن هذا ليس درس قراءة... إنك تحفظ الدروس صماً مثل الببغاء.. وهذا أمر لا فائدة فيه!».

تضايق التلاميذ، ولم يكن مسروراً سوى الكسالى، لأن المعلم قال: «إنكم لا تعرفون أيّ شيء».

لم يستطع (دمير) أن يضبط نفسه فقال: «أستاذ... بالمناسبة... لقد فهمت دروسي جيداً، ولم أحفظها صماً كالببغاء..».

ابتسم المعلم ساخراً وقال: «ذلك واضح من إجاباتك!».

ثم راح يذرع غرفة الصف مطرقاً وكأنه يخطط في رأسه شيئاً... بينما حبس التلاميذ أنفاسهم وهم ينتظرون العاقبة.

توقف المعلم فجأة، ثم نظر إلى التلاميذ وقال صارخاً:

«يا أولاد... إن أول شيء عليكم أن تفعلوه، هو أن تنسوا كل ما تعلّمتموه إلى الآن.. ثم تتعلموه من جديد!... مفهوم؟».

رفع (دمير) اصبعه، ونهض من مكانه، وقال: «يا أستاذ.. لقد تعلّمنا كل ما هو مكتوب في الكتاب، فكيف ننساه ونتعلمه من جديد؟».

اغتاظ المعلم كثيراً وصرخ به: «قلت إن هذا التعلم غلط.. إنسوه، وتعلموا من جديد والسلام... أنا لا أحب كثرة الكلام!».

وعلى هذا النحو انقضت الحصة الأولى.. وفي الفسحة انقسم التلاميذ إلى فريقين، بعضهم يؤيد المعلم القديم... وبعضهم يؤيّد المعلم الجديد... أمّا أنا، فقد كان موقفي وسطاً بين الفريقين.

كان أسلوب المعلم الجديد في صالح التلاميذ الكسالى، فعندما يخطئون في الإجابة، يقولون: «هكذا قال المعلم السابق!». فيجيب المعلم الجديد: «ألم أقل لكم إنسوا كل ما فات..».

لا أدري، هل تعرفين أن نسيان الشيء أصعب بكثير من تعلّمه.. وقد كانت هذه مشكلة كبيرة بالنسبة للتلاميذ الأذكياء.

ذات يوم زارنا المدير في الصف. وكان لدينا درس تاريخ. أراد المدير أن يرى ماذا تعلمنا، فطلب من (دمير) أن يخرج إلى (اللوح)، وسأله: «متى استلم السلطان

سليم الحكم؟».

لم يجب (دمير). سأل المدير: «من الذي اخترع آلة الطباعة؟».

ظلّ (دمير) ساكتاً. وحيث كان المدير يعرف (دميراً) ويعلم أنه من الطلاب اللامعين المجتهدين، فقد سأله:

-«لماذا لا تجيب؟».

-«لقد نسيت.. ولذلك لا أستطيع أن أجيب».

دهش المدير وسأل:

-«من الذي اكتشف أمريكا؟».

-«نسيت يا أستاذ».

-«نسناس...! كيف نسيت؟!».

-«نسيت يا أستاذ!».

صاح المدير وقد اغتاظ كثيراً: «قل أي سخام تعرفه...». أجاب (دمير) بكل هدوء: «لقد كنت أعرف إجابات كل هذه الأسئلة في السابق. ولكنني نسيت الآن..».

-«لماذا؟».

-«لقد أمرنا الأستاذ بأن ننسى كل ما تعلمناه إلى اليوم».

ناداني المدير، وطلب مني أن أخرج إلى (اللوح). فأجبت على كل ما سألني عنه بجواب واحد «نسيت يا أستاذ».

نظر المدير إلى المعلم من تحت نظارته دون أن يقول شيئاً، ثم خرج من الصف. وشرع المعلم في إعطاء الدرس: «أين كنّا؟.. لقد قام السلطان سليم بأعمال عظيمة...».

أمضى ساعة كاملة وهو يشرح لنا تلك الأشياء التي كنا قد تعلمناها من قبل. ولم نعرف -رغم كل ما بذلناه- كيف ننسى ما تعلمناه من قبل، ونتعلم ما يتفضل به المعلم الجديد.

في الفسحة، تجمع التلاميذ من حولي وحول (دمير) وهم يقولون: «لقد أحسنتما صنعاً إذ أجبتما بتلك الطريقة».

تريدين الصدق؟ لقد أخفيت الحقيقة عن التلاميذ، فأنا، بالفعل، لم أكن أعرف الإجابة على أسئلة المدير، وقد نسيتها فعلاً لأن ذاكرتي ليست جيدة كثيراً، ولكن

تعليمات المعلم الجديد قضت على البقية الباقية من هذه الذاكرة. ولن أنسى هذه المصيبة التي ابتلاني بها المعلم طيلة حياتي. أتمنى لو كنت بيننا لكي تتفرجي وتضحكي...

احتفلنا ليلة السبت الماضي في المدرسة بمناسبة افتتاح السنة الدراسية. وقد تمّ التحضير لهذا الاحتفال قبل ذلك اليوم بكثير. كان بعض الأشخاص يعزفون الموسيقى، وواحد يغني. أمّا أنا فكان من المفروض أن أقرأ على أولياء الأمور قصيدة من تأليفي.

وقد اقتبست موضوع القصيدة من كتاب قراء الصف الثالث الذي كان يدرسنا إياه المعلم القديم، وهو يدور عن الخروف والفوائد التي يجنيها البشر من هذا الحيوان النجيب. نشرب حليبه. ومن إليته نصنع السمن. ونأكل لحمه. ونصنع الملابس من صوفه، والأحذية من جلده، وحتى عظامه وروثه نستفيد منها.

كانت قصيدتي:

يا خروفـــاً يتهـــادى في دلالْ — نافعـــاً مستوفيـــاً كل الـــخصالْ
تمنـح النـاس من اللحـم الشهـيّ — وحليبـــاً طيب الطعـــم غنـــيّ
صوفك الناعـــم للنـــاس غطـــاءْ — ومـــن الإلْيـــة سمـــن للغـــذاءْ
تمنـح الـــروث إلـــى كل البـــلادْ — فإذا الأشجـار تزهو في الوهـــادْ

كنت قد أعطيت هذا الشعر للمعلم القديم، وقرأه فأعجبه كثيراً. كما أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أذاكر هذا الشعر وأحفظه غيباً.

وفي موعد الاحتفال كان المعلم القديم قد انتقل، وجاء المعلم الجديد، فغيّر برنامج الاحتفال. قال لي المعلم الجديد: «اقرأ شعرك كي نرى».

قرأت القصيدة، وقبل أن يرفضها سخر منها وقال: «ما هذا الشعر؟ ألم أقل من قبل، اطرحوا كل القديم جانباً». ثم عرض عليّ قصيدة من كتاب القراءة الجديد عنوانها «الوطن» وقال: «احفظ هذه غيباً... ذلك أحسن بكثير».

بالنسبة لي، لم يكن ثمة من فرق، ولكن المشكلة هي أنني لا أملك وقتاً كافياً لحفظ قصيدة «الوطن» كلها، إلى جانب صعوبة القصيدة نفسها.

فتح المعلم الكتاب بنفسه وراح يقرأ لي:

وطنـي بالـروح نسخـو والدمـــاء — كي نراك شامخـــاً في كبريـــاء
كم دعونـــا أن تظلّ في ازديـــاد — تزرع البهجـــــــة في كل فؤاد
.... — ....

كانت القصيدة طويلة، تزيد على ثلاثين بيتاً، وكان المعلم وهو يقرأها يرفع صوته ويخفضه وهو يطالعني بنظرة جانبية تعني «عليك أن تقرأ مثلما أقرأ».

تلك الليلة لم أنم. قرأت القصيدة ثلاثين أو أربعين مرة وأنا أتدرب على إلقائها كما قال المعلم. وفي الصباح، حين ذهبت إلى المدرسة قال لي:

-«قبل أن تذهب لتقرأها على المسرح، اقرأها أمامي لأرى ماذا استفدت!».

قرأتها. ولكن قراءتي لم تعجبه، وبحركة من رأسه وشفتيه قال: «ليس هكذا». ثم قرأها لي مرة أخرى من أولها إلى آخرها وقال: «هكذا عليك أن تقرأها».

قرأتها للمرة الثانية، ولكنه لم يوافق وقال:

«يا ابني يا حبيبي... إنك تلقي الشعر، مثل شخص واقف في زقاق يسأل العابرين عن أحد العناوين.. هذا ليس صحيحاً... ارفع صوتك.. واخفضه... واجعله يرتعش! تلطّف حيناً... وازأر مثل الأسد حيناً آخر! ضع يدك اليسرى على وسطك وارفع قبضتك اليمنى وهزّها في الهواء! وعندما تقرأ عجز البيت مدّ صوتك! واضرب الأرض بقوة بقدمك، وكأنك تسحق رأس العدوّ!».

حاولت أن أنفذ تعليمات المعلم بحذافيرها: وضعت إحدى يديّ على وسطي، ورفعت قبضتي الأخرى، وركزت كل قوتي في حنجرتي وشرعت أقرأ.

وافق على إلقائي، ولكنه اعترض على دقة قدمي للأرض، وقال: «دقّ قدمك بقوة أكبر!».

كنت أدقّ الأرض بكل ما أوتيت من قوة، ولكنه لم يوافق مع ذلك. اغتاظ في النهاية وخبط الأرض بقدمه بقوة اهتزت لها النوافذ، وقال:

«هكذا اضرب يا ولد».

قلت: «أستاذ.. إن وزن حضرتك لا يقلّ عن مئة كيلو غرام، أما أنا، فوزني كله على بعضه اثنان وأربعون كيلو غراماً».

ازداد المعلم غضباً وقال صارخاً:

«لا علاقة للوزن بالموضوع... المهم جوهر الإنسان».

ولكي يدلّل على «جوهره» رفع قدمه وخبط بها الأرض خبطة فاقت كل ما سبقها قوةً.

أرضية غرفة الصف من الخشب، وألواح الخشب التي تشكل الأرضية قديمة مهترئة. عندما ضربها المعلم بقدمه بقوة، تكسّرت، وغاصت قدم المعلم وانحشرت فيما بينها!

يقع الصف الرابع تحت صفنا مباشرة. وعندما سمعوا الصوت خافوا، وهرع المعلم

وبعض التلاميذ إلينا وهم يسألون: «ما الخبر؟ ماذا حدث؟».

خرج إليهم معلمنا من الصف وهو يعرج، ويقول:

«لم يحدث شيء.. كنت أعلّم الأولاد قراءة الشعر!».

عندما ذهب المعلم وجدت أنني لا أستطيع المشي بشكل سليم... فمن كثرة ما ضربت الأرض بقدمي بقوة مات الدم في بشرتها، فلم أعد أطيق أن أضعها على الأرض.

في النهاية، صعدت على المسرح، بتلك القدم العرجاء، وأنا مملوء بالاضطراب. وفي الحقيقة، فإني لم أصعد بنفسي، بل دفعني زملائي إلى المسرح دفعاً.

كانت صالة المسرح تموج بالناس، فقد حضر معظم آباء وأمهات التلاميذ. وقد جلس معلمنا وراء الكواليس متحفزاً، حتى إذا أخطأت يردّني خلسة.

عندما إنفتحت الستارة، انحنيت أحيّي النظارة، فانطلق الناس فجأة بالتصفيق الحاد. أصابني الإرتباك وظللت واقفاً دون حركة. وعندما رفعت رأسي وجدت أن قصيدة «الوطن» التي كان من المفروض أن ألقيها، قد انمحت من ذاكرتي! وراحت قصيدة «الخروف» تلمع أمامي وتتجسّد مثل نجمة ساطعة.

بدلاً من نسيان القديم، نسيت الجديد!

تخيّلي منظري وأنا في ذلك الوضع، واقف على خشبة المسرح أحملق في الناس، وهم يطالعونني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي!

خفّ المعلم لنجدتي وقال من وراء الكواليس: «الوطن». صرخت بانفعال واضطراب زائد: «الوطن». ولكنني للمرة الثانية أخفقت في تذكّر القصيدة.

قلت في نفسي «أكّرر كلمة (الوطن) مرة أخرى لعلّي أتذكر القصيدة». ولكن ذلك كان دون جدوى... وبدأ الناس يصفّقون، مما زاد في اضطرابي... علام يصفقون؟

سمعت المعلم يقول: «وطني...». أعدت من ورائه: «وطني...». وكررتها ثانية وثالثة ورابعة، ولكني لم أتذكر كلمة بعدها.

قال المعلم بصوت أعلى من قبل: «أصغ إلي أيها الأحمق». أجبت دون وعي: «إنني أصغي إليك!!».

ضحك الناس بصوتٍ عالٍ، وقال المعلم ببطء:

«وطني... بالروح نسخوا والدماء».

تذكرت بقية الشعر فجأة، ورحت أقرأ بشيء من الاطمئنان:

«وطني بالروح نسخوا والدماء..».

ما كدت أدقّ الأرض بقدمي بقوة، حتى دخل أحد مسامير خشبة المسرح في قدمي، فأتبعت كلمة «والدماء» بصرخة من الأعماق!

ضجّ الناس بالضحك، أمّا أنا فقد كنت على وشك البكاء...

كنت أنظر إلى الناس بعينين، وأنظر إلى المعلم وراء الكواليس بعينين غيرهما، وأنا أحاول أن أعرف ماذا يقول. صاح المعلم هذه المرة: «كي نراك شامخاً في كبرياء».

التقطت الكلام من فمه على الفور وقلت:

«كي نراك.. نراك.. نراك...».

وظللت مثل فوتوغراف خربت إبرته، أردّد بصوتٍ يجلب الحزن: «نراك.. نراك.. نراك...».

قال المعلم من وراء الكواليس، وهو يكزّ على أسنانه: «اقرأ الشطر الثاني... كم دعونا أن تظلّ في ازدياد..».

قلت على الفور:

«كم دعونا أن تظلّ في ازدياد..».

ثم وجدت نفسي ألحق هذا الشطر بشطر من قصيدة «الخروف» صارخاً: «تمنح الروث إلى كل البلاد...».

ضجّت قاعة المسرح بضحك الحاضرين وتصفيقهم، وامتدّت يد من وراء الستارة، فجذبتني من طرف قميصي، وسحبتني إلى الكواليس..

صاح بي معلمنا الذي كان كمن أطلقت عليه رصاصة:

ـ«يا أحمق.. لقد زدت الطين بلّتيْن!».

ـ«أنا ما ذنبي؟ إنني أنسى كل ما فعلته في السابق!».

أحسّ المعلم أن كلامه لم يكن منطقياً، فلم يقل شيئاً آخر، ثم نزلت وإياه عن المسرح ونحن نعرج... ومضى كل إلى سبيله.

في البيت قال لي والدي:

ـ«لم أكن أدري أنك تمتلك مواهب عظيمة كهذه... لقد أغمي على الناس من الضحك!».

وقالت أمي:

ـ«لقد دمعت من كثرة الضحك، وكادت خاصرتي توجعني!».

أدركت الالتباس الذي وقع فيه الحاضرون في صالح المسرح.. لقد ظنّوا أنني أقدّم فقرة فكاهية وأنها في برنامج الحفل.. ولم يكونوا يعرفون حقيقة الورطة التي كنت فيها.

نعم يا (زينب).. لقد أمضينا عدة أيام في هذا الصخب...

أرجو أن تفي بوعدك، وتردّي على رسالتي بسرعة، وتكتبي لي عن كل ما يحدث... راجياً لك التوفيق.

صديقك، زميل صفك
«أحمد تارباري»

○ كل الآباء.. أوائل في مدارسهم

أنقرة ٢٢/أكتوبر/١٩٦٦

صديقي العزيز أحمد، أشكر لك رسالتك الجوابية... وأرجو أن تكون رسائلك دائماً طويلة مفصلة مثلها.. وسأكتب لك بدوري عن كل ما يحدث...

عندما رحت أقرأ رسالتك، كنت مجسداً في خيالي بطلعتك اللطيفة.. وعندما تخيلتك واقفاً على خشبة المسرح، وقد نسيت الشعر، كدت أسقط من الضحك.

والآن أروي لك حكاية لا تقلّ عمّا جرى في مدرستكم..

نحن نسكن في شقة من بناية تضم أربعة طوابق. ويسكن الطوابق الثلاثة الأخرى زملاء أبي في العمل.. وقد كان والدي وزملاؤه أصدقاء منذ الصغر، كما كانوا يدرسون في مدرسة واحدة.

ويوجد خلف البناية التي نسكنها حديقة كبيرة، وهي تشبه أي شيء إلاّ الحديقة! فلا أثر للأزهار أو الأشجار فيها، ولهذا السبب بالذات تعجبنا، إذ نستطيع أوقات العصر أن نلعب فيها دون مزاحم، وأن نتحدث عن آبائنا وذكائهم وألمعيتهم.

وفي معظم الأحيان، تنتهي أحاديثنا تلك بالصخب والصراخ وما لا يسرّ. حيث يصرّ جميع الأطفال على إثبات أن والديهم أذكى من والدي غيرهم!.

إنك تعرف أخي (متين)ـ الذي كان في الصف الثالث. إنه أكثرهم تعصباً... قبل عدة أيام، وعندما بدأنا بمثل هذه الأحاديث، قال متين صارخاً.

ـ«أبي أذكى من آبائكم كلكم.. عندما كان يدرس في المدرسة، كان ترتيبه الأول دائماً..».

ولكن ابن أحد زملاء والدي في العمل سخر من (متين)، وأخرج من فمه صوتاً..

يعني «طَزْ».

ثار (متين) ثورة عارمة، وأمسك بخناق الولد، وهو يقول:

ـ«يا من لست إنساناً... اذهب واسأل أباك..».

كانت هنالك بنت (هي زميلتي في الصف، شقراء الشعر، قصيرة القامة)، حاولت أن تحجز بينهما، فقالت:

ـ«لا تتخاصما دون مبرر.. لقد كان والدي الأول في مدرسته دائماً..».

أفلت (متين) الولد، وتحوّل إلى زميلتي يسخر منها:

ـ«لا يا عمي! لا تكذبي».

ـ«أنت الكذاب.. إن أبي لم يكن (الثاني) في يوم من الأيام.. كان الأول بين التلاميذ دائماً... فهمت أم لا؟».

قال (متين) بهدوء يغيظ:

ـ«أنت لست غلطانة.. أبوك قال شيئاً، وأنت صدّقت! إن الأول كان أبي... ليس أباك!».

صاحت البنت غاضبة:

ـ«إن أبي لم يكن يسمح أبداً لأحد بأن يتفوق عليه!».

التفت إليَّ (متين) وقال:

ـ«أليس كذلك يا أختي؟ ألم يكن أبونا الأول دائماً؟ ألا يقول لنا باستمرار إنه كان الأول؟».

لم أعرف بماذا أجيبهما. فلو تحيّزت لأحدهما لأزعلت الثاني... ولكي تنام الدعوى قلت:

ـ«انسوا الموضوع.. كل إنسان يفكر كما يحبّ».

كانت القضية تنتهي لولا أن ابن واحد آخر من زملاء أبي، تدخل في الحديث قائلاً:

ـ«إنكم تضيعون وقتكم! لا أبوك الأول ولا أبوها. لقد كان الأول في الصف أبي».

قال (متين) هازئاً:

ـ«عندك! أبوك يتبجّح».

ـ«أبوك أنت، الذي يتبجّح».

ـ«عجيب .. وكيف عرفت؟».

ـ«واضح كالشمس أن أبي هو الذي كان الأول...».

نشبت بينهما مشادّة حامية .. وكادا يتشاجران... أراد (متين) رغم قامته القصيرة أن يهجم على الولد .. أمسكته من يده وسحبته جانباً، فراح يبكي. تحايلت عليه وأخذته إلى أمّي.

قال (متين) لأمّي:

ـ«ألم يكن أبي الأول في صفّه؟ هل هو يتبجّح؟».

غضبت أمي وصاحت به:

ـ«ما هذا الكلام الذي تقوله يا ولد؟ الآن أصبّ الفلفل في فمك...».

لم يقل (متين) شيئاً. ولكي أهدئه قلت له:

ـ«إن أبانا لم يكن أصلاً في صفّ أبيهم».

أجاب (متين) وهو يبكي:

ـ«إن والدي قال ذلك بنفسه أكثر من مرّة!».

ـ«من الجائز أنهم كانوا في صف واحد .. ولكن في مدارس مختلفة ..».

لم يقتنع (متين) بذلك وقال:

ـ«يقول والدي إنهم كانوا معاً في صف واحد ..».

على العشاء، سألت والدي:

ـ«بابا .. هل كنت مع زملائك في صف واحد؟».

ـ«نعم يا بنتي. لقد كنا ـنحن الاربعةـ في صف واحد... وأمضينا خمس سنوات كاملة ونحن نجلس على مقعد واحد...».

لقد سمعت أمّي عندما أنذرت أخي بأنها ستصبّ الفلفل في فمه، ولذلك لم أجرؤ على أن أسأل والدي عن شيء آخر. ولكن السؤال عن حكاية (الأول) ظلّ يدور في رأسي ويلحّ عليّ في أن أجد الجواب.

في اليوم التالي، عندما كنت في المدرسة، سألت طفل أحد زملاء والدي:ـ

ـ«كيف كان أبوك أيام الدراسة؟».

ـ«لقد كان والدي الأول على تلاميذ صفه دائماً...».

قال ولد كان يجلس خلفنا ويستمع للحديث:

-«والدي كان كذلك...».

كان في صفّنا ثلاثة أطفال فقط اباؤهم ليسوا الأوائل. ولكن الباقين ادّعوا بأن آباءهم كانوا الأوائل في مدارسهم!!.

بعد يومين من هذه القضية، استدعى معلم (متين) أمّي إلى المدرسة، وشكى لها من أن ابنها لايهتم بدروسه. وفي تلك الليلة ظل أبي يصرخ على (متين) زمناً، ثم قال له ينصحه:

-«يا ابني يا حبيبي، لماذا لم تكن مثلي؟! أنا.. عندما كنت طالباً في المدرسة، كنت الاول على تلاميذ صفّي دائماً.. ولم يصدف أن كنت الثاني ولو مرة واحدة! أليس عيباً أن يتخلف الإنسان عن رفقائه؟ لماذا لا تحضّر دروسك؟ هاك أنا... اقتد بي! أنظر كيف يساعدني الذين كانوا زملائي في الصف، لأنني كنت أذكى منهم جميعاً... لقد أوجدوا لي وظيفة، وأحضروني إلى (أنقرة) لكي أكون عندهم. أنت أيضاً إذا أردت أن ترتقي وتطور وضعك فإن عليك أن تكون الأول...».

لم أستطع السيطرة على نفسي بعد ذلك فقلت:

-«بابا... عندما يصير (متين) أباً، فسوف يصير الأول!».

فهمت أمّي ما أقصده فقالت:

-«يا قليلة الأدب! أغلقي فمك. عندما يتكلم الكبار ليس للصغار أن يفتحوا فمهم بحرف!!».

ظل والدي ساكتاً، وكأنه قد أحسّ بالخجل من كذبته!! نعم، يا صديقي العزيز -أحمد-، لقد كانت هذه الحادثة سبباً لكي نستريح من توبيخ والدنا لنا من بعد!!

بلّغ سلامي إلى جميع الأصدقاء. سوف أكتب لك في الأسابيع القادمة رسائل أكثر تفصيلاً إن شاء الله.

صديقتك

زينب يالكر

○ أسفاً .. على الخبز الذي أكلته ..!

اسطنبول ٢٨/أكتوبر/١٩٦٦

صديقتي العزيزة زينب، وصلتني رسالتك قبل يومين، وقد فرحت بها كثيراً.

تسألينني إن كان أبي الأول في صفه مثل الآخرين أم لا... إن والدي لم يدّع ذلك

حتى الآن... أتعرفين السبب؟ لانه لم يدخل مدارس أصلاً كي يكون الأول!

بعد أن أرسلت لك رسالتي السابقة، حدثت في مدرستنا واقعة طريفة لن أنساها أبداً. ففي صباح أحد الأيام أعلن مدير المدرسة أن (مفتّشاً) سيزور المدرسة. وقد كان لهذا الخبر في المدرسة وقع الانفجار.. ليس بين التلاميذ فحسب، بل بين المدرسين كذلك، الذين امتقعت وجوههم، وكأن (عزرائيل) قادم إلى المدرسة!

لم نكن حتى ذلك اليوم قد رأينا (مفتشاً) من قبل، ولم نكن نعرف ما يُفعله المفتش وما الذي يسأل عنه!.

ولكن معلمنا كان قد رأى المفتش بضع مرات. قال لنا متلعثماً: «أيها الأولاد.. لا تخافوا أبداً! إن المفتش ليس غولاً... فهو يسألكم بضعة أسئلة... عن قصيدة... مسألة حساب... سؤالاً في التاريخ والجغرافيا... الآن جهّزوا ورقة وقلماً، والأسئلة التي أمليها عليكم تحفظون إجاباتها، كي تستطيعوا الإجابة عندما يسألكم المفتش..».

أخرجنا الدفاتر والأقلام في نزق واضطراب، وبدأ المعلم يملي علينا:

«السؤال الأول: متى تمّ اكتشاف أمريكا».

قلنا بصوت واحد: «في سنة ١٤٩٢».

«صحيح. السؤال الثاني: أي شخص تحبونه أكثر شيء في الدنيا؟»

أجبنا على هذا السؤال إجابات مختلفة. واحد قال: «أتا ترك». وقال آخر: «أمّي». وقلت أنا: «أبي».

قبل المعلم الإجابات الثلاث قائلاً:

-«جميل جداً.. كلّها صحيحة. احفظوها. السؤال الثالث: من الذي فتح اسطنبول؟».

-«السلطان محمد الفاتح».

-«أحسن. احفظوا هذا أيضاً. السؤال الرابع: من الذي بنى مسجد السليمانية؟».

-«البنّاء سنيان».

-«هذا أيضاً صحيح. اقرأوا الأسئلة والأجوبة بضع مرات، وازرعوها في ذاكرتكم».

ثم قرأ لنا قصيدة وفسّرها لنا، وكتبناها مع تفسيرها. وبعد ذلك كتب لنا مسألة حساب على اللوح وحلّها لنا، وقمنا بكتابتها في الدفاتر. ثم قال لنا:

«جميل... الآن، يا أولاد، اقرأوا الإجابات عدة مرات حتى تحفظوها جيداً».

انطلقنا في أزيز متواصل مثل أزيز النحل في خلاياه: «سنة ١٤٩٢. أبي. السلطان محمد الفاتح. البنّاء سنيان. سنة ١٤٩٢. أبي..».

... كان المفتش يقوم بجولة في الصفوف الأخرى.. وعند الظهيرة تقريباً دخل صفّنا.

لفّ غرفة الصف صمت ثقيل. طأطأنا رؤوسنا جميعاً وكل منّا يدعو الله إن لا ينتبه المفتش لوجوده.

تصفّح المفتش دفاتر بعض التلاميذ، لم يكن فيها أي غلط أو تشويش. قال للمعلم: «لديك تلاميذ جيدون. يبدو أنك تتعب عليهم كثيراً!».

كنت أخشى أن يمدّ المفتش يده ويأخذ دفتري ليتصفحه! فجأة وقف الموجه فوق رأسي. رفعت دفتري بحركة لا إرادية وأمسكت به أمام وجهي. سأل المفتش:

«ما هذا؟».

-«قصيدة.. أستاذ..».

-«أيّة قصيدة؟».

-«القصيدة التي أملاها علينا الأستاذ وكتبناها».

نظرت إلى دفتري فجأة.. لقد أعطيت المفتش، بدلاً من القصيدة، مسألة الحساب وجوابها اللذين كتبهما لنا المعلم...

سأل المفتش بشيء من الغضب:

-«إذن أين القصيدة؟».

نظرت إلى المعلم خلسة... كان لون وجهه قد صار من الحنق مثل الشمندر! أردت أن أفتح الدفتر على الصفحة التي كتبت فيها القصيدة، ولكن المعلم أخذ يشير لي بعينيه وحاجبيه. حاولت جاهداً أن أفهم ما يريد المعلم أن يقوله لي، ولكني لم أفلح. وكان المفتش ما يزال ينتظر منّي جواباً على سؤاله. قلت متلعثماً:

-«لم أتمكن من كتابة القصيدة... أستاذ».

قال المفتش للمعلم:

-«أعطهم مسألة حساب ليحلّوها».

وحيث كان المفتش قد رأى المسألة التي كنا قد كتبناها مع جوابها على الدفاتر، فقد

اضطر المعلم أن يسألنا مسألة أخرى!

حاولنا أن نحلّها ولكن عدداً كبيراً منّا لم يفلح في ذلك. أمّا أنا فقد كدت أذوب خجلاً، لأن ما يجري كان بسببي، ولأني أنا الذي زدت الطين بلّة.

كان المفتش، كأنه لا يرى غيري في الصفّ. أشار بيده وقال: «انهض..». نهضت من مكاني كالملسوع ووقفت.

سألني المفتش:

ـ«كم عمرك؟».

لم أنتبه من فرط اضطرابي لسؤال المفتش، كما كانت كل حواسي منصرفة إلى أسئلة معلمنا، لذلك أجبت:

ـ«١٤٩٢ سنة.. أستاذ».

قال المفتش وهو يحملق بي مندهشاً.

ـ«ماذا تقول؟ لقد سألتك كم عمرك...».

جمعت كل قدرتي على الصياح وصرخت:

ـ«١٤٩٢ سنة!».

ارتفعت ضحكات مبتورة بين التلاميذ، كما ابتسم المفتش. هدأت واطمأن قلبي، فابتسامة المفتش دليل على أن جوابي صحيح! ارتاح بالي قليلاً.

سألني المفتش مرة أخرى:

ـ«من الذي فتح اسطنبول؟».

لم ألتفت إلى سؤاله، بل رحت أجيب تبعاً لترتيب الإجابات كما كنت أحفظها فقلت:

ـ«أبي».

هنا انطلقت قهقهات التلاميذ عالياً. ولكن المفتش غضب وخبط بقبضته على الطاولة وقال:

ـ«يا ولد... سألتك من الذي فتح اسطنبول».

كنت على درجة كبيرة من الارتباك بحيث لم أنتبه مرة أخرى للخطأ الذي أقوله، فقلت باطمئنان:

ـ«أبي يا أستاذ!».

سأل المفتش:

-«أبوك مَنْ؟».

مرّة أخرى أجبت وفقاً لترتيب الأسئلة كما حفظناها.

شدّ المفتش أذني وقال:

-«أنت هل تفهم ما تقول؟».

-«نعم.. أستاذ!».

كان الصف يضج بضحك جماعي صاخب متواصل. أمّا معلمنا فكان.. لو ضربته بسكين لما نزلت منه قطرة دم واحدة. ولكي (يلفلف) القضية بأي شكل اقترب من المفتش وقال:

-«إنه مرتبك.. طال عمرك.. اسمح لي بأن أسأله أنا..».

ثم التفت إلي وسألني بهدوء وحنان زائد:

-«يا حبيبي... ركّز تفكيرك جيداً، وقل لي: ما هو العمل المهم الذي أنجزه البنّاء سنيان؟».

قلت بنفس البلاهة:

-«فتح اسطنبول».

هاج المفتش غضباً وصرخ:

-«يا أحمق.. إن كل إنسان يعرف أن السلطان محمد البنّاء اكتشف أمريكا!».

انطلق التلاميذ بسبب غلطة المفتش يقهقهون ويصخبون من جديد. وعندما اكتشف المفتش غلطته اضطّر أن يضحك هو الآخر. ثم أراد أن يصحح غلطته فقال:

-«أقصد أن أقول إن مسجد السليمانية بناه البنّاء سليمان!».

وبهذا التصحيح أفسد المفتش أكثر مما أصلح، وضحك التلاميذ أعلى من قبل. أحسّ المفتش أنه قد فقد هيبته، فعاد إليّ، وراح يفرغ انفعاله من خلالي.. صفعني صفعة حانية على رقبتي وقال:

-«يا أحمق.. لقد أوقعتني في الخطأ.. أنا أيضاً».

ثم خرج من الصف مسرعاً.

كان معلمنا واقفاً بجانب الحائط.. بصق على الأرض وقال:

ـ«تفو ... يا خسارة الخبز الذي أكلته ...» .

ولم نعرف، هل يقصدني .. أم يقصد المفتش ... أم يقصد نفسه! ومنذ ذلك اليوم صار المعلم متسلّطاً عليَّ، كما أنّه لم يعد ـ والحمد لله ـ يوجّه لي أي سؤال» .

.. اكتبي لي رسائل مفصلة كما وعدتني .. واشرحي لي عن كل ما يحدث ... إني في انتظار رسالتك .

صديقك وزميلك

أحمد تارباري

○ أمام الصغار .. ينبغي التحفّظ !

أنقرة ٦ /نوفمبر / ١٩٦٦

أخي أحمد، أرجو أن تظلّ دائماً تكتب لي رسائل طويلة، ولا عليك، فأنا لا أملّ منها مهما كانت طويلة ومفصّلة . فقد قرأت رسالتك بلمحة خاطفة . ولم أقرأها وحدي بل قرأها كل أصدقائي وصديقاتي، وقد أضحكتنا كثيراً .

بدأ الجو هنا يبرد بالتدريج، فلم نعد قادرين على الخروج للّعب في الحديقة .

عندما أعود من المدرسة أنشغل بمراجعة دروسي وحلّ واجباتي المدرسية... وتساعدني أمّي أحياناً في تحضير الدروس .

أختي لا تحب أعمال المنزل اليومية، وخصوصاً كنس البيت وغسل الأطباق .. فهذه أعمال تمقتها جداً! إن أحبّ شيء لديها هو أن تدخل إلى المطبخ وتصنع (الكيك) .. ذلك (الكيك) الذي لا يطيق أكله أحد سواها !

كما أن أمّي لا تحبّ أن تدخل أختي إلى المطبخ .. لأن أختي لو دخلت المطبخ دقيقة واحدة، لاحتاجت أمّي إلى أسبوع وهي تبحث عن الأواني وأدوات المطبخ، وتعيدها إلى مكانها الصحيح !

كانت أختي تريد أن تخطب شخصاً .. ولكنها انصرفت عن الموضوع . وفي هذه الأيام، ليس لنا حديث في البيت إلاّ عن هذا الأمر، وعن (المصيبة) التي ارتكبها أخي الصغير (متين)، لأن السبب في تعثر خطبة أختي، كان كلمة عابرة قالها (متين) !!!

في الليل يجتمع زملاء والدي في العمل وهم زملاؤه السابقون أيام المدرسة، وإمّا أن يأتوا إلى بيتنا وإمّا أن نذهب إلى بيتهم ... يسهرون يدردشون ويتحدثون عن ذكريات الماضي . وهنالك اسم يتردد في أحاديثهم دائماً هو (زينال بيك) .. وهو أحد رفاق الطفولة بالنسبة لوالدي، وصاحب الشركة التي يعمل فيها والدي ورفاقه الآن .

لم تكن هذه الأحاديث تعجب والدتي وكانت لا تكف عن القول: «لقد تعبت من

سماع اسم (زينال بيك)... أليس لديكم حديث آخر تتحدثون به؟».

يغيّرون وجهة الحديث من أجل والدتي.. ثم لا يلبث الموضوع أن يعود إلى (زينال بيك). وهذا الـ(زينال بيك) يمتلك عدة شركات بناء وعدداً من المصانع، وتتنامى ثروته وأملاكه يوماً عن يوم. لا تظنَّ بأنه قد جمع هذه الثروة بفضل علمه وعبقريته.. كلا.. فالله لم يخلق إنساناً أغبى منه وأكثر بلادة، فهو لم يكمل الدراسة الابتدائية إلاّ بشقّ النفس. كان أحد زملاء والدي في المدرسة يقول:

«زينال بيك، أكبر مني بعشر سنوات.. دخلت المدرسة عندما كان في الصف الثالث، وعندما أنهيت المرحلة الابتدائية كان زينال بيك ما يزال في الصف الرابع! كنا نمزح معه فنقول له: (سوف تصبح مدير المدرسة!). لقد نبتت شواربه واكتملت، وهو ما يزال في الابتدائي..!

ذات يوم جاء المفتش إلى المدرسة.. وعندما دخل الصف لم يفرّق بين زينال وبين المعلم.. وقال للمعلم: (اجلس مكانك يا ابني!).. فاحسبوا بأنفسكم مقدار غبائه..».

قال والدي:

«وهل تظنّون أنه الآن أحسن حالاً؟ لقد ساء أكثر مما تحسَّن! أما سمعتم ماذا يقول الناس في قفاه؟ إنهم يطلقون عليه لقب مغفّل القرن العشرين! ويقولون عنه بطل الغباء الذي لا نظير له على وجه الأرض».

قال واحد آخر من زملاء والدي وهو يهزّ رأسه:

«كان أبو (زينال) لا يكف عن الشكوى من فعائله، وكان يقول له: (إنك لن تصير ابن آدم... إن كنت لم تفلح في تعلم الدروس في المدرسة، فتعال اجلس بجانبي في الدكّان عسى أن تفلح في تعلم التجارة والبيع والشراء..).. ومشى (زينال) في طريق التجارة وتعلم الكار، وسرعان ما استغنى».

وقال واحد ثالث من زملاء الوالد:

«صحيح أنه كان إنساناً غبيّاً بليداً، ولكنه يمتلك قدراً كبيراً من الحنكة والفن بحيث استطاع أن يدير أعماله جيداً، فهو يشغل في مصانعه وشركاته العديد من البنائين والمهندسين والأطباء والوكلاء».

قاطع والدي حديث زميله متضايقاً:

«يبدو أنّ منهجه هو الصحيح وليس منهجنا. فقد كنّا أغبياء إذ أضعنا أحسن سنوات عمرنا في المدارس!».

قاطع اثنان من زملاء الوالد حديثه يعترضان في آن واحد:

«لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو».

«إن المال وحده لا يكفي للسعادة..».

أسكتهما والدي بإشارة من يده وقال:

«ما هذا الكلام المنمّق الذي تقولانه؟ أليست الحقيقة أنّنا بعد كل هذه الدراسة جئنا أخيراً لنعمل تحت يده ونأتمر بأمره؟».

تدخّلت أمّي، حين رأت أن الحديث يتشعب ويمتدّ، فقالت: «ألا تريدون أن تكفّوا أيديكم قليلاً عن زينال بيك؟».

كانوا يودّون أن يفعلوا ذلك ولكن الأمر لم يكن بأيديهم.. فكلما اجتمعوا معاً، لا يكادون يتحدثون ببضع جمل حتى يمتد الحديث ليشمل زينال وغباءه وحسن طالعه.

ذات ليلة كان الحديث يدور مرة أخرى على زينال بيك وأعماله وبلاهته، عندما حشر متين أنفه في الموضوع وقال:

-«كيف استطاع زينال بيك هذا أن يصير ثرياً رغم كل هذه البلاهة؟».

أجابت أمّي:

«عندما يتحدث الكبار، لا يجوز للصغار أن يتدخلوا».

وبهذا الكلام أسكتت (متين). وقال له والدي:

-«يا ابني.. إنّ عقلك في هذا السن لا يستوعب هذه الأمور».

كانت أختي قد خطبت إلى ابن (زينال بيك) هذا.. ولم يكن الأمر حاسماً، ولكن أهل الشاب كانوا قد تحدثوا بالموضوع. (هل سبق أن رأيت أختي الكبيرة؟ إنها لا تشبهني.. وهي جميلة جدّاً).. لم يخبرونا (أنا ومتين) في البيت بشيء عن خطبة أختي. كما أن أختي لم تقل لنا شيئاً. ولكننا استطعنا أن نفهم بعض الأشياء من الكلام الذي يتبادلونه فيما بينهم همساً. وكان (متين) أول من أحسّ بالأمر... من فرحة أمّي.. ومن تألق أختي! فكان متأكداً من أن هنالك شيئاً يحاك!

قال لي (متين) ذات يوم:

-«هل تدرين؟ أختنا سوف تتزوج».

-«جميل جداً.. وما المانع؟».

-«ولكن هل تعرفين من الذي خطبها؟».

تظاهرت بأنني لا أعرف وقلت:

ـ«مَــنْ؟».

ـ«ابن السيد زينال بيك!».

لم أردّ عليه، ولم أكن أعرف حقّاً كيف أستجيب للأمر.

غضب (متين) وقال:

ـ«ألم تسمعي؟ قلت لكِ إنها خطبت إلى ابن زينال بيك!».

ـ«ليكن.. وهل في ذلك عيب حتى تزعل وتتضايق؟».

ابتسم لي (متين) ابتسامة ممزوجة بالسخرية وقال:

ـ«ها... فهمت. إنتِ منهم إذن!».

ـ«لا دخل لنا بهذه الأشياء!».

طرح الموضوع بعد ذلك عدة مرات للنقاش بيني وبين (متين)، وكانت وجهة نظري تغيظه وتحنقه، فكان يسأل مستنكراً:

ـ«كيف لا يكون لنا دخل بهذه الأشياء؟ أنا لا أريد لأختي أن تتزوج من ابن شخص كان كسولاً غير مهتم بدروسه».

ـ«إذا كان الأدب كسولاً.. فما دخل ابنه بذلك؟».

ـ«أما فكرت كيف يكون ابنه؟ إنه مثل أبيه.. فالشوك لا ينتج عنباً.. وهو لم يتمكن من إتمام دراسته الثانوية، بل حصل على شهادته بقوّة المال وبالواسطة».

قلت:

ـ«يا أخي (متين).. إن أمّي إن تسمع كلامك تغضب... لا بدّ أن الكبار قد حسبوا حساب كل شيء..».

هنا قال (متين) بلهجة مشوبة بالغضب:

ـ«أعرف.. إنكِ منحازة إلى جانبهم... إنني مغتاظ من تسلّط الكبار.. ولن أسمح لهذا الموضوع بأن يحدث..».

ـ«لماذا؟».

ـ«الأمر لا يحتاج إلى سؤال.. إن أبي وزملاءه يتحدثون عن كل هذه المساوىء التي يمتلكها (زينال بيك)، ثم يريدون أن يعطوا أختي لابنه! كيف يكون ذلك؟».

ثم استدار وخرج.. لم يرد أن أراه يبكي...

ومنذ ذلك اليوم انقلب (متين) من ذلك الطفل الطيب الوديع، إلى شيطان أكيد.. فصار يهرب من المدرسة، وتتوالى الشكاوى عليه من مدير مدرسته ومعلميه بأنه لا يدرس ولا يهتم بدروسه..

غضب أبي منه كثيراً، فأخذ ينصحه ويرشده.. ولكن دون فائدة.. ثم صار يضربه ويعنّفه.. ولكن دون نتيجة كذلك، وظلّ يهرب من المدرسة. ثم صارت أمّي توصله إلى المدرسة في الصباح.. ولكنه لم يكن يستقرّ في الصف.

وعندما كان أبي يحاول أن يحادثه بلين ويتقرب منه، كان (متين) يعقد حاجبيه ولا يزيد في جوابه عن كلمة واحدة..

أردت ذات يوم أن أعرف ما الذي يؤلمه ويكدّره، فأعدت فتح الموضوع معه، فأجاب بصوت رجولي:

-«ما دمت لا تدركين هذه الامور، فلا تضيعي الوقت بالحديث فيها».

بعد ذلك لم يعد للسرور والبهجة في بيتنا وجود.. أمّي غادية رائحة في البيت تبكي.. وأبي مقطب الجبين عابس.. وأختي لم تعد تمزح أو تضحك.

ذات مساء هبط الظلام و(متين) ما زال خارج البيت.. خرجنا نبحث عنه في الزقاق.. فلم نجده. ذهبنا إلى كل الأمكنة التي اعتاد أن يكون فيها، ولكنا لم نعثر له على أثر. عدنا إلى البيت، وجاء زملاء والدي، وتحوّل البيت إلى مأتم. أمّي تشدّ شعرها، وأبي يبكي، ورفقاء الوالد يفكرون بالمكان الذي يمكن أن يعثروا فيه على (متين).

دق جرس الباب فجأة. ركضنا جميعاً إلى الباب، فكان (متين)... الذي تجاوزنا داخلاً دون خوف أو إنزعاج. كما أن والدي لم يفتح فمه ليسأل: «أين كنت؟». وبعد برهة نادى أبي على (متين) وأخذ يتحدث إليه بكل هدوء:

-«يا ابني يا حبيبي... إن الإنسان الذي لا يذهب إلى المدرسة ولا يهتم بدروسه، لن يصير ابن آدم.. فالإنسان يجني من الفائدة بقدر ما يبذل من جهد.. إن مستقبلك مرتبط بمقدار ما تدرس اليوم وتتعب».

وانطلق زملاء والدي كلّ يقول شيئاً:

-«يا ابني يا حبيبي.. كلما اشتغل الإنسان أكثر في حياته، كلما استفاد في كبره أكثر..».

-«على الإنسان أن يشتغل كثيراً في الصغر، حتى يستريح في الكبر..».

أصغى (متين) مدّة وهو مطأطيء رأسه، ثم نفذ صبره فرفع رأسه فجأة وقال:

ـ«الإنسان الذي يعمل كم تكون استفادته؟».

ـ«الأمر يعتمد على كيفية العمل.. فكلما اشتغلت أكثر كلّما استفدت أكثر..».

ـ«هل اشتغل زينال بيك كثيراً لكي يجني كل هذه الفوائد؟».

عندما ألقى (متين) بسؤاله صمتوا جميعاً. لم يكونوا يعرفون بما يجيبون هذا الطفل. ثم قال والدي بصوتٍ رقيق، حين أحسّ أنه متورط:

ـ«لقد كنّا أطفالاً ذات يوم.. وقد مررنا بمرحلة الطفولة، ولكننا عندما كنّا أطفالاً...».

قطع (متين) حديث والدي وقال:

ـ«كل من لا يشتغل يستفيد أكثر».

عندئذ خرج والدي عن طوره وصرخ:

ـ«يعني أبوك يكذب؟».

أرخى (متين) العنان لمشاعره، وقال بصوتٍ يوشك على البكاء:

ـ«إنك تقول الصدق. ولكني لم آت بشيء من عندي... ألم تكونوا كل ليلة تتحدثون عن كسل زينال بيك وغبائه؟ إنه الآن في المصنع (معلمكم) جميعاً.. كم مصنعاً يملك؟ كم شركة هو مساهم فيها؟ كم سيارة عنده؟ وكم بناية؟ وكم من المال؟ فماذا عندكم أنتم؟ كلكم مستخدمون عنده... وابنه كذلك: لم يدرس، وهو أحمق كسول مثل أبيه، ولكنه...».

توقف (متين) لحظة، ومسح دموعه، ثم تابع بصوتٍ قوي واثق:

ـ«لن أذهب إلى المدرسة بعد اليوم... أريد أن أصير أرقى وأكثر ثراء من (زينال بيك)! وأفعل مثله، فأشغل تحت إمرتي مئة طبيب ومهندس وعامل! وأشغل أولئك الذين هم أشطر وأفهم وأعلم مني».

ثم دخل (متين) حجرة نومه، وأكمل حديثه هناك. قال له والدي الذي أثر فيه ما سمعه:

ـ«طيب يا حبيبي... افعل ما تحبّه.. وإذا كنت لا تريد أن تذهب إلى المدرسة فلا تذهب!».

ثم التفت إلى رفاقه وقال:

ـ«الحق علينا... لا يجوز أن نتحدث بكل شيء أمام الأطفال ونقول كل ما يحلو لنا..».

أشارت زوجة أحد رفقاء الوالد نحوي وقالت:

ـ«نعم، ينبغي أن ننتبه للأطفال كثيراً».

وقال أحد رفاق الوالد:

ـ«أعتقد أن (متين) معه حق. فماذا صرنا بعد كل هذه الدراسة التي درسناها؟.. جئنا نشتغل عند زينال بيك..».

أدرك والدي ووالدتي سرّ ضيق (متين) واضطرابه، وفطن كل منهما إلى ضرورة إعادة النظر في كل ما قيل حول موضوع خطبة أختي لابن زينال بيك.. وبعد عدة أيام ألغي الوعد الذي كان قد أعطي إلى عائلة العريس. وتم العثور على عمل لأختي في إحدى الدوائر. وهي تشتغل الآن، كما أنها مسرورة جداً بنجاتها من ذلك المأزق بفضل (متين)..

لا بدّ أنك قد سمعت القول السائر بأن «الأصل الخبيث لا ينتج الفرع الطيب...». كما أن المال وحده ليس كافياً ليصير الإنسان ابن ادم، وليكون سعيداً راضياً.

وقد انحلّت عقدة (متين)، فمنذ الصباح التالي لتلك الليلة أخذ يذهب إلى المدرسة بانتظام كما صار أحسن من قبل، فلا يثير الشغب ولا يكشّر ويعقد حاجبيه... وقد تصالح مع الجميع إلاّ معي! ولا أدري لماذا لم يصفِ لي قلبه بعد... ربما لاعتقاده بأنني لم أناصره وأقف إلى جانبه.. ولكن من جهتي فإنني أحبه أكثر من السابق. إن (متين) بسلوكه ذاك قد دلّل على قوة شخصيته كما فتح عيوننا جميعاً.. ولا أظن أن زعله مني سيطول.

كتبت لك هذه الرسالة بعد العشاء.. والآن، أشعر بالنعاس وأريد أن أنام. غداً عطلة، وقد قالت لنا أمّي إنها ستأخذنا في الصباح ـأنا ومتين- إلى مسرح الأطفال...

بلّغ سلامي إلى جميع الزملاء في المدرسة. وإذا كانت لديك صورة جماعية لهم فأرجو أن ترسلها لي.. إني مشتاقة إليكم جميعاً...

أرجو لك التوفيق، وأنتظر رسالتك.

صديقتك

زينب يالكر

○ أطفـــال الفـــــداء

اسلامبول ١٢/نوفمبر/١٩٦٦

أختي العزيزة زينب، تسلّمت رسالتك قبل يومين، ولم أتمكن من الكتابة لك سوى

الآن .. فقد كلفنا معلمنا بواجبات كثيرة استوعبت كل وقتي .. لقد بدأت أحبّ مدرسنا شيئاً فشيئاً ...

تذكرين أنني قد كتبت لك عن زيارة المدير لصفّنا، وعن (الدور) الذي افتعله (دمير) .. منذ ذلك اليوم أصبحنا نعتقد جميعاً بأن المعلم سوف يغضب من (دمير) ويتحامل عليه.

ولكن الأمر كان على العكس، فقد صار المعلم متفانياً في تدريسنا، يضحّي بوقته وجهده في سبيل إفهامنا، كما أصبح يحكي لنا حكايات وقصصاً عن التضحية، ثم يسألنا:

ـ «ماذا فهمتم من هذه القصة؟ ماذا استنتجتم؟ وما الدرس الذي تستخلصونه منها؟».

هل تدرين لماذا صار المعلم يحبّني؟.. لأنني أفهم قبل غيري القصص التي يحكيها لنا، واستخلص العبرة منها وأحكيها .. ففي كل مرّة يقول لي: «أحسنت يا أحمد!»، ثم يلتفت إلى التلاميذ ويقول:

«أنتم أيضاً، عليكم أن تضحّوا مثل هذا الولد الذي تحدثنا عنه في القصة ...».

بدأ التلاميذ بالتدريج يملّون من هذه القصص.. خصوصاً وأنهم مجبورون على استخلاص العبرة منها... ولهذا السبب بالذات فقد استخلصت من قصة الأمس التي حكاها لنا، العبرة التي أريدها ..

كانت القصة على النحو التالي: «هنالك تلميذ قروي يدرس في المرحلة الابتدائية ... يصعد في أيام الحرب إلى قمة شجرة صنوبر ويستطلع تحركات الأعداء، ويظلّ قابعاً في مكانه ذاك، حتى إذا أبصر الأعداء من بعيد، نزل عن الشجرة ومضى بسرعة ليبلّغ جنود بلده.. وذات مرّة تصيبه رصاصة من الأعداء فتجرحه.. فيتحامل على جرحه ويزحف حتى يصل إلى معسكر بلده.. فيبلّغ الأنباء، ثم يسلم الروح بين يدي قائد المعسكر ..».

قال المعلم بعد أن حكى القصّة:

ـ «طيب يا أحمد.. قل لنا: ماذا نستنتج من هذه القصة؟».

نهضت من مكاني وقلت:

ـ «أستاذ.. هذه القصة التي حكيتها لنا، هل حدثت فعلاً؟ أم أن الكبار عملوها لكي يعطوا للصغار درساً في التضحية؟».

تعجب المعلم من سؤالي... لم يكن يتوقع منّي سؤالاً كهذا. فكّر قليلاً ثم قال لي:

-«ماذا تقصد؟ إن كانت حقيقيّة أو كانت مصطنعة فما الفرق؟».

-«حتى ولو كانت حقيقية، فإنّ تصديقها صعب».

-«لماذا؟».

-«هل انقطع الناس حتى يقوم طفل عمره عشر سنين أو إحدى عشرة سنة بعمل مهم كهذا؟ في نظري، هذه القصة ليست حقيقيّة! و...».

قاطعني المعلم، وسأل باقي التلاميذ:

-«هل كلّكم تفكّرون مثل أحمد؟».

ارتفعت الأصوات تجيب:

«كلاّ.. لا، أستاذ.. أبداً».

(دمير) دون غيره، هبّ واقفاً من مكانه وقال:

-«أنا أفكّر مثل (أحمد)...».

اغتاظ المعلم وسأل التلاميذ:

-«في رأيكم: لماذا يفكر (أحمد) و(دمير) غير تفكيركم؟».

قام (جنكيز) وأجاب:

-«لكي يتميّزا عنّا.. إنهما يخالفاننا دائماً».

دق جرس الاستراحة، فقال المعلم:

-«سوف نعاود الحديث في هذا الموضوع بعد الظهر».

فرحت -يا زينب- كثيراً عندما دقّ الجرس، لأنني أتمكن أثناء الاستراحة أن أقول للمعلم كل ما أريد...

مرّ بي (جنكيز) فقال:

-«كيف حالك أيها العالم؟».

وأضاف (سلمان) الذي كان معه:

-«أكان لا بدّ أن تستعرض مقدرتك؟».

لقد كنت بالفعل دائم التبّاهي بتفوقي أمامهم، ولكن تلك القصة لم تعجبني!

ولكن التلاميذ ـ على العكس ـ أعجبتهم القصّة، فراحوا تحت تأثيرها، يتسلقون أشجار ساحة المدرسة أثناء الاستراحة، ويقومون بالاستطلاع، كما انطلق بعضهم يقلّد أصوات الرصاص بفمه مُطّرِطراً دون انقطاع «تر ررررر... ترترتر ررر».

وحيث أن عدد الأشجار في الساحة لا يكفي لكل التلاميذ، ولم يبق لي شجرة أتسلقها، فقد تسلقت نافذة الطابق الأول، ومنها صعدت على جدار، حيث كمنْتُ خلف أحد أنابيب المجاري.

تشاجر (جنكيز) و(حسين) فوق إحدى الأشجار، وكان (حسين) يقول: «أنا الذي سأقوم بالاستطلاع...».

ويقول (جنكيز): (بل أنا.. لقد كلفوني أنا بهذه المهمة!». هزّ (جنكيز) الغصن الذي يقف عليه (حسين) فأوقعه أرضاً.. ارتفع عويل (حسين) تحت الشجرة، فهرعنا إليه جميعاً، كما جاء المعلمون.

قال معلم الصف الثاني لحسين:

ـ«ماذا كنت تفعل فوق الشجرة؟».

ـ«كنت أقوم بالاستطلاع وأراقب تحركات العدوّ!».

تعجب المعلم عندما سمع ذلك وقال:

ـ«أي عدوّ؟ وهل هنا ميدان حرب؟».

لم تكن جراح (حسين) بليغة.. عصبوا له رأسه، ولفّوا له يده وقدمه...

أما (جنكيز) وهو المسؤول عن وقوع (حسين)، فكان ما يزال فوق الشجرة يرتجف خائفاً.

سأل المعلم حسيناً:

ـ«من الذي أوقعك؟».

ـ«لم يوقعني أحد.. زلّت قدمي فوقعت».

حملني ما حصل مع حسين على التأمل، وقلب أفكاري.. ولذلك عندما سأل المعلم التلاميذ بعد الظهر داخل الصف، وقفت دون إرادتي وقلت:

ـ«التضحية هي فعل الإنسان العظيم.. فالأشخاص الذين يتمتعون بروح النقاء والشجاعة هم وحدهم القادرون على التضحية من أجل الآخرين..».

أعجب المعلم كثيراً بجوابي هذا، وقرّر إجراء مسابقة بين تلاميذ الصف الخامس

(ألف) والصف الخامس (باء)، في كتابة قصة تدور حول التضحية.

أثارت المسابقة صدى واسعاً في المدرسة، وتحمّس التلاميذ لها كثيراً، حيث أراد كل منهم أن يكتب قصّة تفوق سواها. وكان معلمنا يأمل في أن أفوز بهذه المسابقة ولذا راح يحثني ويشجعني باستمرار على كتابة قصة جيدة.

عملت في كتابة القصة ثلاثة أيام بلياليها، وبعد أن أنجزتها قرأتها لأبي وأمّي. ولكنها لم تعجب أبي! قرأتها لعمّي، فلم تعجبه هو الآخر. وتتلخص القصة فيما يلي:

«يمرض أخو أحد التلاميذ مرضاً شديداً. يقلق عليه أهله. ويروح التلميذ الذي يملك نفساً طيبة خالية من الأنانية، يدعو الله في كل ليلة من أجل أخيه ويقول: (يا ربّ! لا تأخذ أخي، بل خذني أنا!). وذات ليلة يأتيه في المنام شيطان ضخم، ويقول له بصوته المشروخ: (لقد استُجيب دعاؤك، وها أنا جئت لآخذك).

ينخرط الولد في البكاء، ويجيب متوسلاً: (لقد أخطأت! إنني قلت ذلك لكي أضحّي!). ويكون صراخه عالياً، حتى أن أمه تصحو من نومها فتسأله: «هل تحلم يا حبيبي؟

انحسر اللحاف عن وجهك، فبردت، وأخذت تهذي!». وتهديء الولد بهذا الكلام.

في يوم المسابقة كان جميع تلاميذ الصفين الرابع والخامس مجموعين في الصالة.. كما كان المعلمون حاضرين، وكان المشتركون في هذه المسابقة ستة من صفّنا، وخمسة من الصف الخامس (باء).

عندما جاء دوري، وقرأت قصتي، ضحك الأولاد، وأخذوا يصفقون، ولكني عرفت من وجوه المعلمين أن القصة لم تعجبهم.

دخل المعلمون حجرتهم لاختيار الفائزين، وبقي التلاميذ في الصالة..

تعرفين الفوضى والصخب اللذين يفتعلهما التلاميذ.. ففي اللحظة التي غادر فيها المعلمون الصالة، ارتفع ضجيج الضحك واللعب والمزاح!

في هذه الأيام، كل تلميذ في المدرسة معه قوس ونشاب.. قطعة صغيرة من الورق، مبرومة ومضغوطة، يضعونها على شريط رقيق من المطاط، ثم يشدّون المطاطة.. ويطلقون.. ولكن هذه القذائف الورقية تؤلم إلى درجة تجعل المرء يصرخ كالملسوع!

أنا لا أعرف أن أصوّب، فلا أجيد رمي حجر لمسافة مترين: والتلاميذ يسخرون منّي دائماً ويقولون: «فلان يقذف الحجارة مثل البنات!»... في ذلك اليوم، وبينما

نحن جالسون ننتظر إعلان نتيجة المسابقة، أحسست فجأة وكأنّ إبرة غاصت في مؤخرة رقبتي.

استدرت، فرأيت ولداً يصوّب على عنقي بالقوس والنشاب ويضرب، والجميع يضحكون عليّ... تناولت ـمن الغضبـ القوس والنشاب من يد زميلي الجالس بجانبي، ثم عمّرت القوس وأطلقت!

آه يا زينب! أين أنت لتتفرّجي! لقد أطلقت طلقتي في نفس اللحظة التي دخل فيها المدير والمعلمون إلى الصالة! طارت الطلقة مباشرة وضربت رقبة المدير! رفع المدير يده على الفور ووضعها على عنقه، ثم حدج التلاميذ بنظرة صارمة!

سأل معلمنا:

ـ«من الذي أطلق هذه؟ لينهضْ ويقف.. كائناً من كان! إذا لم يقف الذي أطلقها فسوف أوجّه تنبيهاً إلى الجميع وأحبسكم فترة الغداء في الصفّ».

نسوا موضوع المسابقة واختيار الفائزين. وقفت وقلت:

ـ«أستاذ! أنا رميتها».

نظر المدير إلى وجهي وقال:

ـ«أنت لم ترمها..».

ـ«بل رميتها..».

ولم يصدّق المدير، بل قال:

ـ«إنني أنظر في وجه الشخص نظرة واحدة فأعرف إن كان مذنباً أم لا... أنت لم ترمها.. إنك عندما رأيت أن الجميع سوف يعاقبون قررت أن تضحي من أجلهم وتتحمل الوزر».

قلت دون أن أخفي شيئاً:

ـ«أستاذ.. إنّي لم أفعل ذلك عمداً.. كنت أريد أن أضرب شخصاً آخر، فخرجتْ من يدي واصطدمتْ بحضرتك!». صعد المدير إلى المنصّة الخشبية وقال:

ـ«هذه هي التي يسمونها (التّضحية)... لقد أعطى زميلكم نموذجاً في التضحية. فمع أنه لم يطلق القذيفة، إلاّ أنّه تحمّل الذنب من أجل راحة الآخرين. هذا هو الذي يسمونه الإنسان الكامل!!! ينبغي عليكم أن تأخذوا من هذه الحادثة عبرة أخلاقية هامة. ولهذا فسوف أسامحكم جميعاً من أجل خاطره..».

ثم التفت إليّ وقال:

ـ«إن القصة التي كتبتها لم تكن جيّدة، ولكن من أجل هذا العمل المشرف الذي قمت به، فإنّي أعلنك الفائز الأول».

هل ترين كيف أن ظواهر الأمور لم تعد تدلّ على بواطنها؟ لقد تغيّر مفهوم كل شيء على أيامنا وفي زماننا، حتى التضحية!

... إذا أتممت دراستي الابتدائية بنجاح، فإنّ والدي الذي لم يتعلم في زمانه، يريد لي أن أتابع دراستي.. ويريد بعد الثانوية أن أدخل الجامعة، وهو مصمّم على أن يرسلني بعد ذلك لأدرس في الخارج.. وقد بدأ الجدل والنقاش بيني وبين أمّي من الآن. فهي تعارض دراستي في الخارج وتقول: «إنني لا أقوى على فراقك». ولا أدري: هل والدك مثل أمّي وأبي؟

أرجو لك التوفيق من الله تعالى.. بلّغي سلامي لكل الصغار. أنتظر رسالتك.

أحمد تارباري

○ أبداً.. لم أتوقع ذلك منك!

اسطنبول ٢٠/نوفمبر/١٩٦٦

صديقي العزيز أحمد، أشكرك على مراسلتك لي بانتظام... عندما أقرأ رسائلك، أتساءل أحياناً: هل ما تكتب عنه يحدث فعلاً، أم أنك تؤلفه من بنات أفكارك؟

إنك لا تتصور كم تفرحني وتعجبني رسائلك.. أتمنى أن أستطيع الكتابة مثل كتابتك..

قبل عدة أيام حدث في مدرستنا أمر جعلنا نشبع من الضحك، على الرغم من أنه أغضب معلمنا.. أرجو أن لا تظنّ أنني أؤلف هذه الحكاية كي تكون رسالتي مشوّقة.. كلا، وحياتك... بل إنني أشرح لك الأمور كما وقعت بالفعل...

ينبغي أولاً أن أعرّفك ببطل هذه الحكاية... في صفّنا تلميذ اسمه (عثمان)، وهو من أفضل تلاميذ الصف في التعلم والحساب. وهو تلميذ منظم، كتبه ودفاتره نظيفة مرتّبة، وقلمه مبريّ جاهز دائماً.. على العكس مني، حيث في معظم الأحيان لا يكون معي قلم ينفع للكتابة!!

وخط عثمان مرتب جميل.. وكثيراً ما عرض المعلم دفاتره علينا وقال:

ـ«اكتبوا هكذا.. مثل عثمان!». وكنا نحبّ ونحاول أن نكتب مثله، ولكننا لا نستطيع، ويظل خطّنا مشوّشاً مرتبكاً.

هل يوجه لكم معلمكم مثل هذه النصائح؟ لقد أربكتنا كثرة توجيهات معلمنا وأوامره..

وهو في كل يوم يكلفنا بكمية هائلة من الواجبات المنزلية، وهو مصمّم على أن نقضي الليل ونحن ننجز هذه الواجبات...

قال عثمان ذات يوم:

-«يا أولاد... إن معلمنا لا يقرأ هذه الواجبات ولا يصحّحها، بل يكتفي بإلقاء نظرة عليها».

قلت:

-«إذا كان لا يقرأها فلماذا يكلفنا بها؟».

أصرّ (عثمان) على كلامه وأعاد:

-«إني واثق من أنه لا يقرأها..».

قال أحد الزملاء:

-«كيف تعرف أنه لا يقرأها؟».

-«الحكاية واضحة!! إن عدد تلاميذ صفنا (٤٨)، فلو أعطانا واجباً منزلياً كل يومين، لكان المتوسط (٢٤) واجباً في اليوم، لكل مادة من المواد... ومعنى ذلك أن عليه أن يقرأ ويصحّح كل يوم مئة وأربعة وأربعين تمريناً!!

سألت:

-«ماذا تقصد بهذا الكلام؟».

-«الآن، بإجراء حسبة بسيطة تفهمين... في أية ساعة ينبغي على المعلم أن يبدأ في قراءة وتصحيح الواجبات؟».

قال أحد التلاميذ وقد بدأ يضيق بالموضوع:

-«يا أخي، ما علاقة هذا الحديث بالموضوع؟ إن المعلم يبدأ وقتما يحب!».

-«إنني أريد أن أبرهن لكم على كلامي بالحساب».

قال زميل ثانٍ من التلاميذ:

-«لنفرض أنه يبدأ في الساعة الثامنة».

قال آخر:

-«ولماذا الساعة الثامنة؟... بل في الخامسة...».

قلت:

ـ«كلاً، غير معقول... إنه لا يصل إلى البيت قبل الخامسة والنصف».

أسكتنا (عثمان) وهو يضحك وقال:

ـ«طيب... نأخذ المتوسط، فلنفرض أنه يبدأ في الساعة السابعة... فكم دقيقة ـفي رأيكم ـ يستغرق تصحيح الواجب الواحد؟».

تراوحت إجابات التلاميذ بين ثلاث دقائق وعشر دقائق. وفي النهاية اتفقنا على تقدير أربع دقائق للواجب. ثم راح (عثمان) يتمتم ويحسب، فكانت النتيجة تسع ساعات في الليلة! ثم إلتفت إلى التلاميذ وقال:

ـ«أرأيتم أنني على حق.. فلو بدأ المعلم يصحح الواجبات في الساعة السابعة مساء، فإنّ عليه أن يظل يصحّح إلى الصبح دون أن ينام أو يأكل أو يفعل أي شيء آخر!

قلت:

ـ«ذلك غير مستبعد عن معلمنا... فهو قد يعطل كل أعماله وأشغاله ويتفرغ لتصحيح دفاترنا!».

ضحك (عثمان) وقال:

ـ«لا يا جماعة.. إن الإنسان لا يمكن أن يقتل نفسه في سبيل حفنة ليرات يأخذها آخر الشهر... إنه لا يقرأ سوى دفترين أو ثلاثة، ثم يوقع على الباقي!».

بعد تلك الجلسة (زعلنا) من (عثمان) لأنه يغتاب معلمنا، فقاطعناه ولم نعد نكلّمه..

وبعد عدة أيام قالت إحدى زميلاتنا:

ـ«يبدو أن (عثمان) معه حق!».

ـ«كيف عرفتِ؟».

ـ«لنا زميل يسكن قريباً من بيت المعلم... وجد اليوم وهو قادم إلى المدرسة، كمية من الأوراق المقطعة مرميّة في الزقاق، وقد تعرّف على ورقة منها، فانحنى وجمع القصاصات عن الأرض، فوجد أنها الورقة التي كان قد حلّ عليها الواجب قبل بضعة أيام وسلّمها للمعلم... تتبّع أثر الأوراق على الأرض فقادته إلى وعاء النفايات.. حيث وجد كل أوراق الواجبات المنزلية للتلاميذ، ممزقة ومرمية فيه.. تناول قبضة من قصاصات الأوراق وأحضرها معه».

قلت:

ـ«هذا ليس دليلاً كافياً... فقد يكون رماها بعدما قرأها»

وفي الوقت ذاته بدأ يداخلني الشك.

كان (عثمان) يجلس في الصف بجانبي. عندما قال المعلم: «سوف أعطيكم تدريب تاريخ..». قال لي عثمان خفيّةً:

-«الآن أثبت لكم إن كان المعلم يقرأ واجباتنا أم لا!».

سألته:

-«كيف ستثبت؟».

-«سوف أكتب رسالة بدلاً من حلّ التمرين..».

قال المعلم:

-«حضّروا الأقلام والأوراق واستعدوّا».

كان أحد الأسئلة كما يلي: «ماذا تعرفون عن السلطان سليم؟».

بدأ الجميع يكتبون. في السطر الأول كتب (عثمان) اسم السلطان سليم، وكرّره بضع مرات. ثم كتب: «عمه السلطان صفدر! وأبوه السلطان حيدر، وأمّه السلطانة زبيدة..». ثم كتب: «سلّم عليهم كلهم، وقبّل أيادي بناته، وبلّغ تحياتي إلى أولاده!». ثم كتب بضعة سطور عن وقائع مباراة لكرة القدم كانت قد أجريت قبل عدة أيام، وأضاف في ذيل الورقة: «أرجو أن يتمكن السلطان سليم من الحضور لمشاهدة المباراة!».

في الاستراحة عندما راح (عثمان) يخبرنا بهذه الأشياء كدنا نموت من الضحك.. أما هو نفسه فلم يكن يضحك، وقال:

-«إذا قرأ المعلم هذه الخزعبلات التي كتبتها فما العمل؟».

وأمضى عدة أيام في هذا الخوف والتوجّس.. وحين لم يبدر من المعلم شيء، بدأنا جميعاً نشكّ فيما قاله لنا (عثمان)، ولكن بالأمس عندما اتضح الموضوع أدركنا أنه كان صادقاً في ما قاله!

كنّا في الحصة الأولى.. تأخّر المعلم قليلاً، ثم جاء. دخل الصف عابساً مقطب الجبين، وكان في السابق لا يدخل الصف إلاّ ضاحكاً مستبشراً... قال في غضب:

-«لينهضْ (عثمان).. وليخرج إلى اللوح..».

قام (عثمان) ووقف في مكانه. صاح به المعلم:

-«تعال هنا..».

مشى (عثمان) إلى اللوح، وقال المعلم:

ـ «أيها الأولاد.. ذاك اليوم كنت قد أعطيتكم واجباً منزلياً في (التاريخ الطبيعي). والآن سيقرأ لكم (عثمان) حلّ الواجب كما كتبه..!».

ظنّنا أن المعلم سوف يعيّرنا بإجابة (عثمان) كالعادة ويطلب منّا أن نجيب مثله! ولكن وجه عثمان كان قد صار من فرط الانفعال مثل الشمندر. سلّمه المعلم الورقة وقال له:

ـ «إقرأ... إذا غيّرت كلمة واحدة فأنت تعرف ماذا يحدث لك... إقرأ الأسئلة أولاً، ثم إقرأ الإجابات!».

بدأ عثمان يقرأ:

ـ «السؤال الأول: ما هي الريح، وكيف تنشأ؟»..

قال المعلم:

ـ «الجواب الصحيح هو: إنه عند ارتفاع درجة الحرارة فإنّ الهواء الساخن الذي يصبح أخفّ يرتفع إلى أعلى، فيصطدم مع الهواء البارد الذي يريد أن يهبط إلى أسفل.. فتنشأ الريح نتيجة لذلك... والآن اسمعوا جواب زميلكم!».

كان (عثمان) واقفاً متجمداً مثل الصنم، فقال المعلم:

ـ «لماذا خرست؟ أكمل..».

بدأ (عثمان) يقرأ:

ـ «عندما يخفّ يرتفع... ريح.. ريح».

تلكّأ (عثمان) فصاح به المعلم:

ـ «هيّا.. إقرأ!».

قرأ عثمان:

ـ «أشفقت الريح على فريق (كالاتاسرا) لكرة القدم! على الرغم من أن (كالاتاسرا) كان في الشوط الأول يلعب ضدّ الريح، إلاّ أنه كان يلعب بتفوّق! وكان أعضاء الفريق يركضون مثل الريح! تعيش الريح!...».

السؤال الثاني: ما هي العاصفة، وكيف تتكوّن؟

الجواب: يقال للريح التي تكون سرعتها عشرين متراً في الثانية (عاصفة)... كان لاعبو (كالاتاسرا) اليوم يهبّون مثل العاصفة.. ليتني أستطيع أن أصف لكم لعبهم...

وعلى أثر هذه العاصفة وقع اللاعب (متين) على الأرض، فاحتسب الحكم ضربة بيْنيّة!».

بينما كان (عثمان) يقرأ عن الورقة، كان التلاميذ يغالبون الضحك ويحاولون بالقوة أن لا ترتفع أصواتهم به.

أمّا (عثمان) فكان متضايقاً يوشك على البكاء! سأل المعلم:

-«ما معنى هذا العمل؟».

ظلّ (عثمان) الذي أوشكت دموعه على السقوط ساكتاً، فأشفق المعلم عليه وقال:

-«لقد كنت تلميذاً جيداً... لم أتوقع ذلك منك.. اذهب واجلس في مكانك..».

مضى عثمان وهو مثل السكارى، مترنحاً مضطرباً، وجلس في مكانه.

لقد أمتعتني هذه الأحداث حقّاً... في الاستراحة قلت لعثمان:

-«كيف حالك؟ أما قلت لك إن المعلم يقرأ دفاتر الواجب؟».

في مساء ذلك اليوم جاءت إحدى صديقات أمّي لزيارتنا.. لم يسبق لي أن رأيت هذه السيدة. سألتني عن صفّي وعن المدرسة التي أدرس فيها.. وعندما أخبرتها أخذت تضحك عالياً. سألتها أمّي:

-«ماذا هنالك؟».

راحت المرأة توضح:

-«مساء أمس كنت في زيارة لبيت معلّمكم، فحدث أمر طريف... رأيت على مكتبه كمية ضخمة من الأوراق مرتبة فوق بعضها.. كانت حلول التمارين التي يعطيها لتلاميذه. سألته: (من أين لك الوقت الكافي لتقرأ كل هذه الأوراق؟). قال: (لست في حاجة إلى قراءتها وتصحيحها.. فالتلاميذ معظمهم جيدون! هل تريدين أن تريْ واحدة منها؟). سحب ورقة من بينها وأعطاني إيّاها... كان الخطّ جميلاً جدّاً، والكتابة على السطور بحبر ملوّن... ولكني عندما رحت أقرأ وجدت المكتوب كلمة من الشرق وكلمة من الغرب.. وكان الموضوع كله عن فريق كرة قدم! أعطيت الورقة للأستاذ. فلما قرأها غضب كثيراً وقال: (إنّي لم أتوقع من هذا التلميذ أن يفعل ذلك!)....».

... وهكذا وجدت أن عثمان كان على حقّ.. كما أنني لم أتوقع من معلمنا أن يفعل ذلك.

صديقي العزيز .. أعتذر إذا كنت قد أطلّتُ عليك وأزعجتك... أنتظر رسالتك.. بلّغ سلامي للأصدقاء، واكتب لي آخر أخبارهم.

صديقتك

زينب يالكر

○ عذاب الضمير

اسطنبول ٢٥/ديسمبر/١٩٦٦

عزيزتي زينب.. كنتِ قد كتبتِ لي بأن رسائلي عذبة تستحق القراءة.. سوف يكون تشجيعك هذا باعثاً لي على أن تكون رسائلي القادمة أفضل من سابقاتها. ولكن الموضوع الذي سأكتب عنه هذه المرة يبعث التأثر والحزن، خلافاً للمرات السابقة.

عندما راح المعلم يحكي لنا هذه الحكاية كنت أستمع إليه وأنا أكاد أبكي من فرط التأثر.

قبل عدة أيام كان (حسين) يقرأ في كتاب المطالعة، فوصل إلى عنوان هو (عذاب الضمير). وضّح لنا المعلم ما يعنيه العنوان، وتوسع في الشرح، ثم سألنا:

-«هل فهمتم معنى عذاب الضمير؟».

أجبنا بصوتٍ واحد:

-«نعم أستاذ.. فهمنا».

قال المعلم:

-«كل من فهم جيداً.. عليه أن يأتي بمثال عن عذاب الضمير..».

لم يجب أحد. هل تعرفين زميلنا (ياشار)؟ إنه ما يزال يجلس في المقعد الأخير، وهو يقضي الوقت إمّا في اللعب بالطوابع وإمّا في الخربشة والرسم. ناداه المعلم:

-«ياشار، قم وقل لنا: أما مرّ معك إلى الآن موضوع يدور حول عذاب الضمير؟».

رفع (ياشار) رأسه وكأنه يسمع كلام المعلم للمرة الأولى... (إنه عفريت- لو تذكرين- ومثير للمتاعب...)، وكانت تلك أفضل الطرق للتملّص من الجواب. فلو قال (نعم)، لكان عليه أن يشرح ويعطي مثالاً.. ولو قال (لا)، لما أفلته المعلم، لأنّ معلمنا يعتقد أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض، لم يجرب الإحساس بتأنيب الضمير، ولو لعدة مرات في حياته!

أعاد المعلم السؤال على (ياشار):

ـ«ياشار .. ألم تجرب الإحساس بتعذيب الضمير ولا مرة؟».

أجاب في اقتضاب شديد:

ـ«كلا، أستاذ.. ولا مرة..».

بهذا الكلام، خلّص (ياشار) نفسه.. ولكن (سليمان) الذي يحبّ التباهي بنفسه، رفع أصبعه وهو يقول:

ـ«أستاذ.. أنا أقول. أستاذ، أنا أقول..».

أومأ المعلم برأسه برفق وقال:

ـ«قل لنا، هل عانيت من تأنيب الضمير؟».

ـ«نعم، أستاذ... عانيت كثيراً!».

ـ«طيب... قل لنرى».

ـ«عن أي مرّة أتحدث، أستاذ؟».

ضجّ التلاميذ بالضحك.. لم يكن معلوماً، ما إذا كان (سليمان) يريد إضاعة الوقت، أم أنه سيؤلّف شيئاً من عنده ويقوله.. ضحك المعلم بدوره وقال:

ـ«هل يعني هذا أنك صادفت كثيراً من الأحداث التي تتضمن تعذيب ضمير؟».

ـ«نعم، أستاذ... كثير..».

ـ«إحكِ لنا عن واحد منها...».

ابتلع (سليمان) ريقه مثلما يفعل دائماً.. ربما تذكرين أنّ (سليمان) لا يستطيع أن يجيب عندما يُسأل إلاّ بعد أن يتلوّى ويعتصر نفسه ويبتلع ريقه... وفي هذه المرّة أدّى هذه الحركات أكثر مما يفعل في العادة، ثم بدأ يتحدث:

ـ«علينا أن نحترم الكبار دائماً وأن نعطف على الصغار...».

ضاق المهلم بهذه السفسطة وقال:

ـ«طيب، طيب.. وبعدئذ ماذا حدث؟».

ابتلع (سليمان) ريقه من جديد وقال:

ـ«أرادت أمّ أن تنصح ابنها.. وما كادت تفتح فمها للكلام حتى سمعا دقات على بوابة الدار... أطلّت الأمّ من النافذة فرأت (حماها) وراء الباب. فقالت لابنها: (جاء جدّك.. قل له إنّي غير موجودة).

قام الولد وفتح الباب، وقال: (جدي.. لقد خرجت أمّي في عمل..).

أجاب الشيخ: (قل لأمّك، عندما تخرج، أن لا تنسى أن تأخذ معها رأسها من النافذة!!!)...».

ابتلع (سليمان) ريقه مرة أخرى وسكت. فسأل المعلم:

ـ«هل حدثت هذه الحادثة معك؟».

ـ«لا.. قرأتها في الجرائد..!!».

ـ«إذن لماذا عانيت من تعذيب الضمير؟ فالأمر لم يكن يتعلق بك..».

ـ«أنا لم أعانِ من تعذيب الضمير.. أمّ ذلك الولد هي التي عانت!».

هنا سأل المعلم التلاميذ مرّة أخرى:

ـ«من جرّب تأنيب الضمير بنفسه؟ فليأت وليتحدّث...».

تكلم بضعة أشخاص بعد ذلك، ولكن ما قالوه كان متعلقاً بالآخرين.

قال المعلم:

ـ«يتضح من ذلك أن أيّاً منكم لا يعرف تأنيب الضمير... إن كل من يحسّ بتأنيب الضمير لا بدّ أن يكون قد قام بعمل سيء وسبّب عن طريقه أذى للآخرين. ولم يعد يملك إلاّ الندم والأسف».

توقف المعلم قليلاً ثم تابع حديثه:

ـ«الآن أقدّم لكم مثالاً يوضح تأنيب الضمير..».

صمتنا جميعاً ورحنا نصغي باهتمام. قال المعلم:

ـ«كنت طالباً في المدرسة الثانوية.. وكان مدير المدرسة إنساناً قاسياً. وكانت السنة الدراسية في أولها.. وقد أضيف إلى صفّنا بعض الطلاب الجدد الذين لم نكن نعرف أسماءهم بعد.

كان من بين هؤلاء التلاميذ واحد، يضع يده اليسرى في جيبه ولا يخرجها أبداً.. ولم تكن علاقتنا يوم ذاك تسمح بأن نقول له: (لماذا لا تخرج يدك من جيبك؟).

.. ذات يوم.. بعد أن تغدّينا ورجعنا إلى المدرسة، بدأنا نلعب في الساحة، فجاء المدير، ونادى على التلميذ الذي يضع يده في جيبه. ركض الولد بسرعة دون أن يخرج يده من جيبه ووقف أمام المدير!

كنّا نعرف طباع مديرنا، ونعلم أنه لا بدّ قد غضب كثيراً من تصرف الولد، ولذا فقد انصرفنا عن اللعب ووقفنا لنرى ما يحدث.

اغتاظ المدير كثيراً من سوء سلوك الولد فصاح به:

ـ«لماذا تضع يدك في جيبك؟».

لم يجب الولد، وظلّ مطأطئاً رأسه... كنّا قد تجمهرنا جميعاً حول المدير... صاح مرة أخرى:

ـ«إني أكلّمك.. قلت لك أخرج يدك..».

ظل الولد واقفاً لا يتحرك. فصرخ المدير بشدة:

ـ«هل أنت أصمّ؟».

قال التلميذ بصوتٍ خافت ذليل:

ـ«إني أسمع يا أستاذ».

قال المدير الذي استشاط غضباً:

ـ«المدرسة ليست مكاناً للولدنة والألاعيب.. قلت أخرجْ يدك..».

ولكن الولد لم يسمع، وظلت يده في جيبه.. رفع المدير يده وصفع الولد صفعة أطارت الشرر من عينيه! كانت صفعة المدير بالغة القوة بحيث أن الولد لم يتحمل، فوقع على الأرض، وخرجت يده من جيبه!!!

عندما رأينا ذلك المنظر صمتنا فجأة، وخيّم الوجوم على الجميع... ثم بدأنا نتناقل الهمس.

وكان المدير أسوأنا حالاً، فقد وقف واجماً مبهوتاً جامدا مثل الصنم. لم يكن يدري ماذا يفعل، وكيف يمرّر الأمر.. لأن الولد لم يكن يملك يداً يسرى، وإنّما يداً صناعية، انفكّت ووقعت على الأرض عندما ضربه المدير.

فهمنا أخيراً لماذا لم يكن يخرج يده اليسرى من جيبه. امتلأت عينا المدير بالدموع فانحنى على الأرض وأنهض الولد وقال:

ـ«يا ابني ... لماذا لم تخبرني من قبل؟».

ثم أخذه من يده وقاده إلى غرفة الإدارة.

ولكن هذا التلطف لم يجد نفعاً.. فقد انقطع الولد عن المدرسة منذ اليوم التالي، كما خجل أن يذهب إلى مدرسة أخرى.. وقد سمعنا بعد ذلك أن المدير قد اعتذر للولد وأولياء أمره، ووعدهم بأن يعامله معاملة خاصة ويعتني به. ولكن الولد لم يعاود الحضور إلى المدرسة أبداً!...

عندما حكى لنا المعلم ذلك الموضوع، خيّم على الصف صمت بارد، وتحت تأثير تلك الحكاية بقينا صامتين لا نستطيع قول شيء. وعندما دق الجرس يعلن الاستراحة، وأراد المعلم أن يخرج من الصف قال:

- «لقد كتب على مديرنا أن يعاني من عذاب الضمير طوال عمره...

هذا هو عذاب الضمير».

قال (سليمان) بعد أن غادر المعلم الصف:

- «الأستاذ أيضاً.. لم يتكلم عن شيء عاناه بنفسه... بل تكلم عن عذاب الضمير عند الآخرين!».

أجاب أحد التلاميذ:

- «الأستاذ ليس مقصّراً، فليس هنالك من يتذكر الأعمال السيئة التي ارتكبها بنفسه، ونحن لا نذكر سوى أخطاء الآخرين».

عندما ذهبنا إلى المدرسة في اليوم التالي قال (دمير):

- «يا أولاد.. لقد سألت أبي عن عذاب الضمير، فقال: الأطفال لا يشعرون بعذاب الضمير، فهو من شأن الكبار».

وأنا أرى ما يراه أبو (دمير)، فماذا عنك أنتِ؟

أعلم أن دروسك وتمريناتك وواجباتك المنزلية كثيرة، ولكن حاولي أن لا تتأخري كثيراً في الكتابة إليّ.. فأنتِ لا تدرين كم أكون مشتاقاً لوصول رسائلك.. ففي كل يوم، ما أن أعود إلى المنزل حتى أسأل أمّي «هل جاءتني رسالة أم لا؟».

أتمنى لك التوفيق.

أحمد تارباري

○ ليلـــة العيـــد

أنقرة ٣/يناير/١٩٦٧

أخي أحمد، وصلتني رسالتك قبل عدة أيام، كما تسلمت بالأمس بطاقة التهنئة التي أرسلتها لي بمناسبة السنة الجديدة.. أشكرك على الاثنتين.. وأخبرك بأنني قد أرسلت لك بطاقة تهنئة مماثلة قبل عدة أيام، أرجو أن تكون قد وصلتك.

لا أظن أن البطاقة التي بعثتها إليك، في مثل جمال بطاقتك وروعتها، فأنت تتمتع بذوق دونه ذوقي أو ذوق غيري. لقد عرضت بطاقتك على كل الأصدقاء والصديقات. وقد أعجبوا بها جميعاً، وأثنوا على ذوقك..

لقد استمتعنا بليلة العيد .. وإنها لتستحقّ أن أحدثك عنها . إنّ أمّي وأبي على درجة لا بأس بها من البخل والامساك . وبالطبع ، فإنّهما يعتبران هذه الصفة من أفضل صفات الإنسان، وهما لا يتعبان من القول بأن على المرء أن (يمدّ رجليه على قد لحافه).

وهما ينصحاننا دائماً قائلين:

ـ«يا أولاد .. إذا كنتم تريدون أن تعيشوا حياة مريحة نافعة، فتجنّبوا التبذير الذي لا طائل تحته.. احرصوا على أقلامكم، ولا تقطعّوا دفاتركم وتخرّبوها».

لاحظتْ أمّي ذات يوم أن أخي (متين) يدع سطراً ويكتب على سطر ، فتحدثتْ إليه ما يقرب من نصف ساعة وهي تقول:

ـ«يا حبيبي، إن هذا العمل إسراف واضح، وما البحر إلاّ قطرات تجمعت إلى بعضها! فلو مضيت على هذا المنوال، تضيّع في كل يوم ورقة واحدة، لأصبح ما تضيّعه في عام، دفتراً كبيراً. وعندئذ لن ينفع الندم!».

وقد ولّدت كثرة هذا الكلام وأمثاله في نفوسنا نوعاً من التمرّد والرفض! خصوصاً بعد أن دخل جدّي هذه المعركة، فلم نعد نطيق أو نتحمل.

راح جدّي واشترى لي (حصالة) وأخرى لأخي (متين)، وقال وهو يعطينا إياهما:

ـ«يا أعزائي.. إن من لا يحافظ على (الواحد) لن يعرف (الألف). ضعوا هذا الكلام في آذانكم. والقطرات تتجمع فتصير بحراً».

ثم قال يسألني:

ـ«هذا ما معناه؟».

كان جدّي كلما قال شيئاً التفت لمن حوله وسأل:

ـ«هذا ما معناه؟».

أجبت:

ـ«تصير بحراً.. يا جدّي!».

أعجب الجواب جدي كثيراً فصاح يثني على نباهتي:

ـ«بارك الله فيك!». ثم أنعم على كل منّا بليرة. ولكني ـوأخيـ لم نكن راغبين في هذه النقود، ولا مستعدّين لسماع هذه النصائح..

لقد كان لعيد هذه السنة حسنة لن ننساها، فهو سوف يريحنا من الاستماع لهذه النصائح والوصايا إلى أمد طويل.

اعتاد أبي وأمّي أن يظلاً في البيت ليلة العيد، فلا يخرجان إلى مكان، وذلك حتى لا ينفقا أي نقود بدون مبرّر..

وفي هذه السنة قرّر زملاء والدي في العمل، والذين يسكنون بجوارنا، أن يحتفلوا برأس السنة في أحد الفنادق الكبيرة، وبدون أن يخبروا والدي، رتّبوا الأمور، وحجزوا مكاناً لأبي وأمّي.

عندما علم والدي (زعل) كثيراً، ولكن حيث أن الأمر قد تمّ، وحيث وجد أنه لا مناص من دفع النقود للفندق، فقد ابتلع الأمر ولم يعترض.

ذهب الجيران إلى الفندق منذ المساء، ولكنّ أمّي وأبي بقيا في البيت من أجلنا، حيث تعشينا معاً.. ثم لعبنا وتسلينا. وعندما اقترب منتصف الليل أخذانا إلى بيت جدّي وجدتي، وتركانا هناك، وذهبا إلى الحفل.. وذلك -على الأقل- حتى لا تضيع عليهما النقود التي دفعاها إلى الفندق. وقد اصطحبا معهما أختي الكبيرة.

لعبنا قليلاً وضحكنا، ثم أوينا إلى الفراش.. وعندما استيقظت كان الصمت يلفّ كل شيء.. ظننتُ أن أمّي وأبي لم يعودا بعد. بقيت أتقلّب في الفراش بعض الوقت، عندما دخل (متين) إلى الغرفة وقال:

-«ما الذي جرى لهم؟».

-«خير؟».

-«تعالي وانظري... أختي ملقاة على الأثاث بملابسها! وأبي ممدّد على الأرض.. ولا أثر لأمي!».

نهضت من مكاني وهرعت إلى الصالة. كانت أختي المثقلة بالماكياج منذ الليلة السابقة، منطرحة على الأريكة، والأوراق الملونة التي نثروها على رؤوسهم في الفندق ما تزال على شعرها ولباسها. وكان والدي الممدّد على السجادة على الأرض، يلبس قناعاً غريباً عجيباً، وعلى قدمه طربوش مخروطي من الورق. أمّا أمّي فقد نامت على سريرها، وإحدى فردتي حذائها ساقطة في الممرّ، أمّا الأخرى فقد أخذت مكانها على الدرج..

غطّينا وجه أمّي، وسحبنا أختي بمشقة وألقيناها على سريرها.. ولكننا لم نستطع إيقاظ والدي بكل السبل.

بعد ظهر اليوم التالي بدأوا يستيقظون واحداً بعد الآخر. وكانت أمّي أول من استيقظ، ثم صحى أبي، وكان آخرهم أختي، التي قالت فور أن فتحت عينيها:

-«أوه.. قلادتي غير موجودة!».

ولم تكن تعلم أين وقعت منها! بدأ أمّي وأبي بالتذمّر والشكوى. وقد فهمنا من كلامهما أن احتفال رأس السنة قد كلفهما كثيراً.

سألتُ أمّي التي بدت مثل الثكالى وهي واضعة يديها في حجرها:

-«كيف سندبّر أمورنا حتى آخر الشهر؟».

أجاب والدي:

-«نقترض».

لم يكن مثل هذا الكلام متداولاً في بيتنا من قبل. أخذتنا أمي (أنا ومتين) جانباً وقالت:

-«أعطياني نقودكما... غداً أردّها لكما!».

فتحنا (الحصالتين) وأعطينا النقود لأمي.. بعد دقائق سمعنا شخصاً يقرع الباب. كانت ابنة الجيران تحمل رسالة من والدها.

استلمت الرسالة منها، وحملتها إلى والدي، وفي هذه الأثناء قرأتها، فكان فيها:

«صديقي العزيز -بعد سهرة أمس (التي تعرف ما جرى فيها)، لم يبق في جيبي دينار واحد! لا أذكر كيف عدنا إلى البيت.. ولا بدّ أن تكونوا أنتم الذين أعدتمونا!.. أكون شاكراً كثيراً لو أرسلت لي مئة ليرة».

أعطيت الورقة إلى والدي.. قرأها وراح يتهامس مع أمّي. فهمتُ من ذلك أن أبي لا يستطيع أن يقول لزميله (ليس معي).

أخذ النقود التي أخرجناها من حصالتي وحصالة (متين) وأرسلها إلى الجيران. وكان هو وأمّي يبذلان جهدهما كي لا نفهم ما يجري.

سأل أبي:

-«أين (متين)؟».

قلت:

-«لا بدّ أنه يعمل واجباته!».

ناداه أبي طالباً منه الحضور، ولكن (متين) تأخّر. راحت أمّي لترى ماذا يفعل.. تبيّن أنه -كالعادة- قد أضاع قلم الرصاص وأنه يبحث عنه!

غضبتْ أمّي كثيراً وصرخت:

-«إن هذا الولد لا يعرف التدبير! لقد ضقتُ من كثرة ما اشتريتُ لك أقلام

رصاص!».

وراح أبي يكرر أحاديثه السابقة:

ـ«من لا يحافظ على (الواحد).. لن يعرف (الألف)...».

قاطعت حديثه وقلت:

ـ«القطرة على القطرة.. لا تصير بحراً!».

قطب والدي حاجبيه وقال:

ـ«كيف لا تصير بحراً؟».

ـ«لا تصير...».

ـ«وإلاّ فكيف تصير؟».

ـ«إذا كان المكان الذي تصبّ فيه القطرات عميقاً، تصير بحراً. أمّا إذا لم يكن عميقاً فإن القطرات تصير سيلاً يجرف كل شيء في طريقه!».

حدجني والدي بنظرة غاضبة، وقالت أمّي:

ـ«إذا فتحت فمك بمثل هذا الكلام ـهذه المرةـ أصبّ الفلفل في فمك!».

نعم، لقد كفّ والدي ـللمرة الأولى، عن توجيه النصائح لنا، فاسترحنا، والحمد لله، من سماع هذه الخزعبلات!.

أكتب لي كيف أمضيت ليلة رأس السنة. إني في انتظار رسالتك.

صديقتك

زينب يالكر

○ رأس الســــنة

اسطنبول ١٠/يناير/١٩٦٧

أختي العزيزة زينب، وصلتني بطاقة المعايدة منكِ قبل مدة.. أشكركِ كثيراً. لقد أمضينا ليلة رأس السنة في بيت عمّي الكبير.. ولأن بيتهم كبير فقد كان كل أعمامي هناك.

لقد تعوّدت أن أنام مبكراً، ولذا فقد كان بقائي صاحياً حتى منتصف الليلة مشكلة إلى حدّ ما. فكنت أطرد النوم بالاستماع إلى الراديو..

لقد كنتِ محظوظة في ليلة رأس السنة، على الأقل، لأنكِ تخلصتِ من سماع النصائح الفارغة! أمّا أنا فلا أعتقد أنني سأتخلّص منها حتى آخر العمر!

المصيبة أن والدي يكون خارج البيت متلافاً مبذَراً ، أمّا عندما يدخل البيت فإنه يبدأ بالتوفير وبإسداء النصائح لنا ..

إنّنا نعرف أخلاق والدي وطباعه جيداً ، فعندما يروح ينصحنا ويرشدنا ، نفهم أنه قد أسرف في الصرف خارج البيت في ليلة البارحة !

- « لا تكثروا من المعجون على فرشاة الأسنان .. إنه مضرّ ... لا تسرفوا في استعمال الخيوط ... لا تتخلّصوا من الجرائد القديمة ! احرصوا على أن تصنعوا أكياس ورق وتبيعوها .. » .

إلى الجحيم بكل نصائحه ! إنه بعد أن يسهر مع أصدقائه ، يعود إلى البيت فيغضب ويثير من المتاعب ما لا يطاق .

وفي ليلة رأس السنة ، حيث ظلّ في البيت ، ولم يصرف من النقود علينا كثيراً ، فقد استرحنا والحمد لله ، من ثورته وغضبه ، ولهذا السبب فقد مضت الليلة على خير ما يرام !

لقد أهداني في العيد (علبة ألوان) ، وسوف أرسم في العطلة الصيفية لوحات جميلة وأرسلها إليكِ .

أبارك لكِ ولأسرتكِ بالسنة الجديدة ، وأرجو لك التوفيق .

أحمد تارباري

○ أبو البنات الثماني !

أنقرة ٢٠ / يناير / ١٩٦٧

أحمد ، وصلتني رسالتك ، وسرّني أنك فرحت بالعيد ، أدعو الله أن تظلّ سعيداً على الدوام . قبل عدة أيام وقع أمر طريف يستحق أن أرويه لك ، مع أنه كان قد تقرر أن لا أطلع أحداً على هذا الموضوع ، ولكن حيث أنك بعيد في (اسطنبول) فإنّي لا أرى ضيْراً في الكتابة لك عنه .

لي زميل في الصف اسمه (حكمت) ، أفشى إليّ أسراراً تستحق الإستماع .. وها أنا أضع هذا السّرّ بين يديك ، وأطلب منك إذا اهتديت لحلّ للمشكلة أن تكتب إليّ ..

منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه الصف ، كان (حكمت) أكثر زميل لفت انتباهي ، بهدوئه واستكانته ..

كان ضعيفاً ناحلاً شاحب اللون .. ولم يكن يلعب مع البنات ، ولا يتشاقى مع الأولاد ، بل ينتحي ركناً ويقبع فيه ..

وفي أحد الأيام، عندما قام مدرس الرياضة بفصل الأولاد عن البنات، إنضم (حكمت) إلى فريق البنات..

عجبت للأمر كثيراً.. صحيح أن اسم (حكمت) يصلح أن يكون اسماً لولد أو اسماً لبنت، ولكن تقاطيع وجه (حكمت) كانت تقاطيع وجه ولد.. كما أن الشعر مرجّل على طريقة الأولاد، واللباس جاكيت وبنطال...! ورغم كل ذلك فقد تبيّن أن (حكمت) بنت وليست ولداً.. ولهذا فقد زاد تعلقي بها وأصبحنا صديقتين...

قبل عدّة أيام، تأخرتْ (حكمت) في الحضور إلى المدرسة.. وعندما جاءت كانت في غاية الاضطراب، كما فهمتُ حين رأيت عينيها المنتفختين أنها قد بكت كثيراً.. سألتها:

-«ما سبب إنزعاجك؟».

لم تجب، ولكنها حين رأت إلحاحي قالت:

-«بصراحة.. أريد أن أخبرك، ولكني أخشى أن تقولي للآخرين..».

وعدتها بأن لا أفشي سرّها لأحد.. فبدأت تحكي:

-«نحن ثماني بنات، وليس لنا من أخ..».

قاطعتها وقلت:

-«لقد كنتِ تأتين إلى المدرسة في غالب الأيام بصحبة أخيكِ».

-«ذاك ليس أخي.. بل (هي) أختي التي ترتدي ملابس الأولاد!».

سألت:

-«لماذا؟».

-«هكذا يريد والدي!».

قلت:

-«طيب... ما في ذلك شيء».

قالت (حكمت) موضحة:

-«إنّ أبي يحبّ كثيراً أن يرزق بولد. وحين جاء المولود الأول بنتاً، تحامل والدي على نفسه، وتقبّل الأمر على مضض وقال: «لا بدّ أن يكون المولود الثاني ولداً». وقبل أن يولد المولود الثاني، اختار له اسم ولد. وكان يعتقد بأن المولود إذا أختير له قبل مولده اسم ولد، فلا بدّ أن يكون ولداً!

لا أدري هل هو سوء الحظ، أم أن هنالك سبباً آخر، جعل المولود الثاني أيضاً يكون أنثى.

ظلّ والدي قابعاً في البيت ثلاثة أيام لا يغادره، وهو يغالب إحساسه بالغضب والخزي! كما قضى مدّة أخرى لا يكلّم أحداً.. وراح أصدقاؤه يواسونه قائلين:

ـ«إنك ما زلت شاباً.. والخير في الآتي».

ولكن والدي لم يكن يصغي لهذا الكلام، بل يقول:

ـ«ولكن، ماذا لو جاء الأطفال الآخرون إناثاً؟».

عندما حملت أمي للمرة الثالثة، كان أبي يقول لنفسه:

ـ«لا يصير أن يكون كل الأطفال إناثاً!! لا بدّ أن يكون هذا ذكراً».

قام مرّة أخرى بتحضير اسم ولد. كما أقام وليمة كبيرة على شرف ابنه! كما كان يحدّث كل من يزورنا عن هذا الإبن! وحين جاء الخبر من مستشفى الولادة بأن الله قد منّ عليه بأنثى جنّ جنونه من القهر.

وحيث كان قد أخبر الجميع بأن مولوده ذكر، فقد أوصى أفراد أسرته بأن يقولوا للناس إن المولود ذكر! كما راح هو نفسه يتظاهر بالفرحة، وأقام لأصدقائه وليمة أخرى!

بعد مولد البنت الثالثة، قام والدي، الذي قطع الأمل في إنجاب أمّي للذكور.. فطلق أمّي، وتزوّج من أخرى..

ويشاء سوء الحظ أن لا تلد الزوجة الثانية بنتاً، بل اثنتين! وفي المقابل، فإن أمّي التي تزوجت من رجل اخر قد أنجبت ولداً!.

عندما علم والدي بذلك هام على وجهه مثل المجانين، وتوارى عن الأنظار مدّة! وبعد أن ظهر من جديد.. طلّق زوجته الثانية كذلك.. وقرّر أن يتزوج من أرملة سبق لها أن أنجبت ثلاثة ذكور! كان يعتقد بأن هذه المرأة لا بدّ ستلد له ذكراً!.

عندما ذهبت الزوجة الثالثة لمستشفى الولادة، أقام والدي بكل اطمئنان حفل غداء عامر بالضيوف، على شرف الولد الذي سيرى النور بعد ساعات..

وراح يتصل بالمستشفى بين لحظة وأخرى ويسأل: «أما جاء الولد بعد؟». وفي حوالي منتصف الليل دعي إلى التلفون، أمسك السماعة ويده ترتعش، وسأل: «ولد أم بنت؟». أخبروه مرة أخرى أن الله قد أعطاه بنتاً! غضب غضباً بالغاً فهوى بالسماعة على التلفون فحطمها!

ولكن ليت الأمر وقف عند هذا الحدّ. فقد هدّد والدي، إذا جاء المولود السابع أنثى، بأنه سيطلق زوجته الثالثة، وبأنه لن يدخل البيت حتى آخر عمره!

وفي يوم ولادة المولود السابع، راحت الزوجة المسكينة ترجو الممرضات وتتوسّل إليهن، إذا كان المولود أنثى.. أن يقلن إنه ذكر!

أشفقت عليها الممرضات، وعلى الرغم من أن المولود السابع كان أنثى إلاّ أنهن بشّرن والدي قائلات: «لقد أعطاك الله ولداً مثل عصفور ذهبي!».

عندما سمع والدي بالبشرى، خفّ إلى سرير المولود وهو يقول ملهوفاً: «احضروا لي ابني لأراه».

عرضوا عليه المولود، وكان ملفعاً بإحكام فلا يُعرف إن كان ذكراً أم أنثى.

دامت هذه (الإجراءات السرّيّة) ثلاثة أشهر. وفي هذه المدّة كان المرح والنشاط يسيطران على جوّ البيت. وكان والدي يمضي وقته كلّه في البيت ملازماً زوجته وابنها المزعوم، فيأخذ (نهاد) في حضنه ويروح يلاعبه. كما كان يلبّي كل ما تطلبه أم (الولد)، ويشتريه لها، وحتى البنات، لم يكن يرفض لهن طلباً. ولهذا فقد كانت البنات ـ اللواتي يعرفن أن سعادتهن مرهونة بكتمان سرّ (نهاد) ـ لم يكنّ يقصّرن في تقديم العون داخل البيت.

كان حمّام (نهاد) وتغيير ملابسه، من الأسرار الهامة للعائلة، ولهذا فقد كان يتمّ إجراؤهما في غاية الحذر، وفي سرّيّة تامة!

ولكن السّرّ لا يظلّ خافياً إلى الأبد. وسرّ (تزوير) (نهاد) لا بدّ أن ينكشف ذات يوم. وكانت هذه المسألة، وما سوف يصاحب ظهور الحقيقة من مشكلات، تقلقنا وتعكّر صفونا. فرحنا نبحث عن طريقة نخبر بها الوالد بعد أن نمهّد للأمر.

وذات يوم جاءت اللحظة الحاسمة، وحدث ما كان يجب أن لا يحدث.. كنّا مستغرقات في نوم لذيذ، حين أفقنا على صراخ الوالد وشتائمه. وكانت دموع زوجة أبينا تهطل كالمطر. لم نعرف كيف ومن أين اكتشف والدي الأمر. كان يصيح مثل المجانين حين يفلتون من عقالهم:

ـ «أغربوا عن وجهي.. أيها المزورون.. أيها الكذابون.. تقولون إنه ولد؟! أين (حمامته)؟ تريدون أن تستغفلوني؟ سوف أخرب بيوتكم!».

التجأنا من الخوف في تلك الليلة إلى بيت الجيران، ولكن كل محاولات الجيران وجهودهم لم تفلح في استرضائه والتهدئة من ثورته. فكان يردد بإصرار وعناد «لا بدّ أن أطلّق زوجتي!».. ومن المفروض أن يذهب اليوم إلى كاتب العدل.. أمّا نحن

البنات فلا نعلم كيف يكون وضعنا غدا».

أبكاني كلام (حكمت) وأضحكني في الوقت ذاته... تخيّل وضع الوالد الذي عنده ثماني بنات وحاول أن تفهمه... سوف ترى أنه ليس مضحكاً. من جهة أخرى لقد هزّتني دموع (حكمت) وهي تنحدر من عينيها كاللؤلؤ، وأثارت حزني الشديد.

عندما عدت من المدرسة إلى البيت عصراً سألت أمّي:

- «عندما ولدت أختي هل فرح والدي؟».

ظلّت أمّي تقيسني بنظراتها بعض الوقت في تعجب ثم أجابت:

- «كيف لا يفرح والد عند مولد أطفاله؟».

سألت:

- «ماما.. كيف كان والدي عندما ولدت بعد أختي مباشرة؟ هل فرح كذلك؟».

صرخت أمّي:

- «ما هذه الخزعبلات يا بنت؟».

لم أعبأ بصراخ أمّي وقلت:

- «أريد أن أرى كيف كان الحال عندما ولد أخي (متين) بعدي.. ألم يفرح أبي أكثر، لأن المولود ذكر؟».

- «حسناً... لقد أقام لأصدقائه وليمة فاخرة، بطبيعة الحال..».

سرّني صدق أمّي وبساطتها، وأثّرا بي، فسألت:

- «كيف تكون الأمور لو أن مولودك الثالث كان أنثى؟ هل يفرح كذلك؟».

- «أنا ماذا أستطيع أن أفعل؟ إن هذه الأمور ليست في يدنا..».

- «ربما كان والدي يرغب عندئذ في إنجاب طفل آخر!».

- «طيب.. هذا جائز... ولكن ما قصدك من هذه الأسئلة؟».

- «مجرّد أسئلة..».

تركت أمّي وخرجت، وأنا أحسّ في حلقي غصة تخنقني... لقد أثرت بي الحكاية التي قصّتها عليّ (حكمت)، وحزّت في نفسي، إلى درجة جعلتني راغبة في أن أهجر هذا المجتمع وهذه الأسر التي ما زالت تحمل أفكار العصر الحجري... إلى عالم لا تكون أفكار أهله بمثل هذا الضيق.

منذ ذلك اليوم وإلى الآن، ما زال يلحّ عليّ هذا السؤال:

«هل من العيب أن يكون الإنسان أنثى؟ وإذا كان مولد البنت ذنباً فعلى من يقع وزره؟».

إنّك محظوظ لأنكَ ولد.. أرجو إذا كان عندك حلّ لمشكلة (حكمت) وأمثالها من البنات أن تكتبه لي..

أخيراً أتمنى لك الصحة والعافية. وفي انتظار رسالتك.

زينب يالكر

○ ما زلت صغيراً.. لا تفهم

اسطنبول ٢٥/يناير/١٩٦٧

زينب، عندما قرأت رسالتك أضحكتني، وفي والوقت ذاته خلقتْ في نفسي كثيراً من الهم، فقد أحزنني وضع صديقتك. أرجو أن تكتبي لي عمّا يحدث من تطورات في شؤون (حكمت)، وحياة أسرتها، وما ستؤول إليه أمورهم. إنني لم يسبق لي التفكير بأن كون الإنسان بنتاً أو كونه ولداً يخلّف مثل هذا التأثير في حياة أسرة من الأسر.

سألت والدي عن هذا الموضوع.. قال لي، بعد محاضرة مطولة:

ـ«يولد الإنسان إما رجلاً وإما امرأة.. ولا فرق في ذلك».

ـ قلت:

ـ«بابا.. لو كنت امرأة، فهل يعجبك ذلك؟».

غضب أبي فجأة وأجاب بانفعال:

ـ«وما المناسبة!».

غضب والدي وكأنّ كون الإنسان امرأة هو ذنب من الذنوب! سألت هذا السؤال لأمي:

ـ«ماما.. هل تحبين لو كنتِ رجلاً؟».

تنهّدت أمي وأجابت:

ـ«حسرة!».

أمس أخذنا معلمنا لنتفرّج على المتحف، وعندما عدنا سألته السؤال ذاته، فضحك وقال:

ـ«ما الذي جعلك تفكر بهذا الموضوع؟».

شرحت له ما جاء في رسالتك باختصار . ربّت على كتفي برفق وقال:

- «إنّ هذه الأمور لا تتناسب مع عمرك!».

إن المعلم يظنّنا أطفالاً لا نفهم شيئاً. لقد وجّه أخي ذات يوم سؤالاً إلى أبي، فأجابه بهذا الكلام ذاته:

- «إنك ما زلت طفلاً صغيراً لا تفهم... عندما تكبر قليلاً سوف تفهم..».

عندما سمع أخي ذلك أجاب:

- «بابا.. وضّحْ لي، ولا عليك إن كنت لا أفهم..».

لقد مضى على هذه الحادثة وقت طويل، وما زال والدي كلما تذكّر جواب أخي يضحك.

عجيب.. لماذا لا يشرحون لنا، ولماذا لا يريدون أن يوضّحوا لنا الأمور، ويكتفون بالقول: «إنكم ما زلتم صغاراً ولا تفهمون»؟.

دعيني أحكي لك هذه الحكاية الطريفة. منذ عدة أيام أخذت أمّي أخي وذهبت تزور الجيران. وهناك اجتمعت نساء الجيران من حول بعضهن وانهمكن في تبادل الأحاديث. وكان من بينهن امرأة حامل توشك أن تضع بعد مدّة قصيرة. وقد دارت أحاديثهن حول شؤون المرأة ومشاغلها.

جلس أخي في ركن من الغرفة يلهو بألعابه، غير منتبه لما تقوله النساء. ولكنه حين سمع إحداهن تقول:

- «لا تتحدثن بمثل هذا الكلام أمام الأطفال»، ترك ألعابه، وراح يصغي إليهن. قالت امرأة أخرى:

- «يا أختي.. إن هذا ما زال طفلاً، ولا يفهم من هذه الأشياء شيئاً!».

أثار هذا الكلام حسّ الفضول عند أخي، فراح يحاول فهم أحاديثهن.. انتحى جانبا وتظاهر بأنه مشغول بألعابه، بينما كانت حواسّه كلّها مركزّة على ما يسمع من حديث.

فهم كل ما سمعه جيداً، ثم أخذ يتربص فرصة ليثبت أنّه قد فهم.

ليلة أول أمس، كان بعض جيراننا يزوروننا في البيت، وكان بينهم تلك المرأة الحامل ذاتها.

تقدم أخي من المرأة وقال دون تمهيد:

- «أنت حامل يا خالتي.. أليس كذلك؟».

ظلّت النّساء ساكتات أول الأمر، ثم انفجرن بالضحك. بينما قالت السيدة الحامل:

-«بلى يا عزيزي..».

سأل أخي دون أن يتلعثم:

-«تريدين أن تلدي طفلاً؟».

تبادل أبي وأمّي النظر فيما بينهما. في حين قال أخي الذي أراد أن يثبت أنه قد كبر ولم يعد طفلاً وأنه يفهم كل شيء:

-«إنني أعرف كيف تحبل النّساء!».

عضّت السيدات على شفاههن خجلاً! أمّا الرجال فقد حاولوا تغيير الموضوع بالحديث في أشياء أخرى. ولكن أخي لم يكفّ عن الحديث بل قال مؤكداً:

-«إنني أعرف.».

قالت أمي:

-«اقفل فمك يا ولد.. ولا تفتحه أبداً!».

ولكن أخي كان ما يزال على إصراره، في حين كان الضيوف ينفجرون بالضحك ولا يستطيعون السيطرة على نفوسهم إلاّ بصعوبة.

قالت أمّي، وأخذت أخي من يده وجذبته خارج الغرفة. بينما راح يصيح مقهوراً بصوتٍ يخالطه البكاء:

-«إني لم أفعل شيئاً.. كنت أريد أن أقول إنني أفهم كل شيء». عندما عادت أمّي بعد أن حبست أخي في الغرفة المجاورة، قال زوج السيدة الحامل:

-«إن أطفال هذا الزمان يفهمون كل شيء».

تريدين الحق.. لقد أعجبني ما فعله أخي. لقد كنت أوافقه على كل ما فعل، فقول الكبار بأن الصغار لا يفهمون شيئاً يغيظني للغاية.

كانت عندي مجلة فيها صورة لامرأة ترقص، أخذت المجلّة وعرضتها على أبي وسألته:

-«بابا.. لماذا لا يرقص الرجال؟».

نظر أبي إليّ من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ ثم قال:

-«الآن، جاء دور هذا!».

قال أحد أصدقاء والدي وهو يحاول أن يقنعني:

-«الرقص ليس من شأن الرجال.. إنه شأن النساء».

لم اقتنع، فقلت في جدية تامة:

-«في هذه الأيام، لم يعد هنالك فرق بين الرجل والمرأة».

قال واحد آخر من أصدقاء والدي:

-«بل هنالك فرق بسيط.. ولهذا فقد شُكلّت للنساء (لجان حقوق المرأة)، ولم تشكّل مثل هذه اللجان للرجال».

قال والدي يتابع ما قاله رفيقه:

-«نعم.. فالرجل رجل... والمرأة مرأة. ومهما يكن، فثمة فرق بينهما».

قالت أمّي التي ضايقها هذا الكلام:

-«هنالك فرق كبير آخر بينهما.. فالرجل بإمكانه أن يتسكع في الحارات إلى الفجر.. ولكن المرأة إذا تأخرت في العودة إلى البيت عن الساعة السابعة أو الثامنة مساء لأقام الرجل الدنيا وأقعدها».

بدأ أبي وأمّي بالجدل والمماحكة.. وانقسم الضيوف إلى فريقين: الرجال يؤيدون أبي، والنساء يتحيزن لأمّي، حتى كادت الجلسة تتحول إلى ميدان حرب.

خلاصة القول، إن السؤال الذي سألتني إياه في رسالتك يشغل بال الجميع.. وفي الواقع فإن كل الأسر والعائلات تفرّق بين الولد والبنت.

أمّا أنا فإني أحسّ أن للنساء امتيازاً كبيراً بكونهن نساء، كما أن للرجال امتيازاً مماثلاً بكونهم رجالاً. وقد حدثنا التاريخ عن نساء كثيرات لم يرغبن أبداً، ولم يكن يعجبهن أن يكنّ رجالاً.

إن في الحياة حقيقة هامة، هي أن يكون الإنسان راضياً عن وضعه.. فلو اقتنع بما هو كائن، ورضي بما يملكه، لنال السعادة وراحة البال.

أرجو لكِ التوفيق، من أعماقي.. وإني في انتظار رسالتكِ.

أحمد تارباري

○ الجسر الصغير

اسطنبول ٣٠/يناير/١٩٦٧

الأخت زينب، لقد اعتدت على استلام رسالة منكِ كل أسبوع، ولذا، عندما تأخرت رسالتكِ هذه المرة أصابني القلق والاضطراب... عندما أعود من المدرسة عصر كل

يوم، أسأل أمّي: «هل وصلت الرسالة أم لا؟». وحين تجيبني بالنفي يصيبني الغمّ والفتور... من أجل ذلك ها أنا أكتب لكِ هذه الورقة، قبل أن يصلني ردّك على رسالتي السابقة.

في غد اليوم الذي أرسلت لكِ فيه رسالتي السابقة، كنّا في غرفة الصف، نتلقّى درسا في (الطبيعة)، عندما دخل مدير المدرسة، يصحبه شخص آخر. وبعد أن تحدث المدير مع معلمنا بعض الوقت طلب من (أوغزر) أن يخرج إلى اللوح.

إنكِ لا تعرفين زميلي (أوغزر). فقد جاء إلى مدرستنا في هذا العام، حيث كان يدرس قبل ذلك في إحدى مدن (اناتولي)، ثم انتقل فيما بعد إلى اسطنبول.

عندما دخل مدرستنا، أخذ التلاميذ يضحكون عندما رأوه. أتدرين لماذا؟ لأن وجهه مثل وجه القط تماماً... كما أنه يُتأتيء في الكلام تأتأة شديدة.

كان التلاميذ في الأيام الأولى يتعمدون إيذاءه ومضايقته. ولكنه لم يكن يثور أبداً، وكأنه قد اعتاد على هذه الأمور.. بل يكتفي بأن يقابل من يضايقونه بابتسامة ساخرة، ويمضي. كما أن التلاميذ كفّوا أذاهم عنه حين أدركوا أنهم غير قادرين على استفزازه وإثارته.

كان (أوغزر) مفعماً بالثقة بالنفس، ولذا فقد كان يقابل كل من يسخر منه بسخرية مماثلة.

كنّا نلعب ذات يوم في ساحة المدرسة أثناء الاستراحة، فقال (أوغزر):

ـ«يا أولاد.. من يسابقني في تسلّق الأشجار؟».

كان المسكين من فرط حماسته عاجزاً عن نطق هذه الكلمات بشكل سليم، وحين أدرك التلاميذ ما يريد قوله بجهد جهيد، دفعوني إلى الأمام يقحمونني في هذه المسابقة، ولكني لم أكن على استعداد لمنافسته. وقد أدركت فيما بعد أنني قد أحسنت صنعاً إذ لم أسابقه.

عندما أحجمت عن الاشتراك في المنافسة، تنطّع (جنكيز) لها، وأخذ يباهي بنفسه ويسخر من (أوغزر)، فقال:

ـ«إنك غير قادر على قول كلمتين بصورة صحيحة، فكيف تريد أن تتسابق معنا؟».

ضجّ التلاميذ بالضحك حين سمعوا ذلك.

...كانت توجد عند حنفيات الماء، شجرة كستناء برّية. رسم بعض الأولاد خطاً

بمسمار على بعد أمتار من الشجرة. ووقف (أوغزر) و (جنكيز) عند الخطّ.. كما تمّ اختياري لأكون حكماً.

رحت أعلن بدء المباراة صارخاً:

ـ «استعدّ... واحد.. اثنان.. ثلاثة».

ما كدت أقول (ثلاثة)، حتى انطلق كلاهما نحو الشجرة مثل قذيفة مدفع.. فما كاد (جنكيز) يلمس الشجرة بيده، حتى كان (أوغزر) قد صار في قمّتها.

ومن مكانه في أعلى الشجرة راح يسخر من (جنكيز) ويستهزيء به متأتئاً مفأفئاً.. لم يكن أحد يفهم ما يقوله بالضبط، ولكنا عرفنا بصعوبة أنه يقول لجنكيز·

ـ «حاذر أن تقع..!».

أفلح (جنكيز) أخيراً في تسلّق الشجرة. ولكنه لم يستطع أن يبلغ قمتها.. فقد زاغت عيناه.. انحدر (أوغزر) مثل الهرّ إلى (جنكيز).. ثم انزلق هابطاً إلى الأرض مثل السمكة. وراح يقول للآخرين في زهو وغرور:

ـ «من كان أبوه بطلاً.. فليتقدّم!».

بعد ذلك اليوم صار (أوغزر) في أعيننا إنساناً عظيماً. فكان عندما نمرّ بأشجار السرو في طريقنا من المدرسة إلى البيوت، يظلّ يصعد الأشجار ويهبط.. إلى أن نصل.

كان (أوغزر) و (مينا) يجلسان في الصف على مقعد واحد، وكان (مينا) سعيداً بهذا الزميل الذي يملك كل هذه الحنكة والمهارة.

غاب (أوغزر) عن المدرسة يومين.. وكان مريضاً. وعندما حضر إلى المدرسة قال (مينا):

ـ «هل تعرفون يا أولاد لماذا يُتأتيء أوغزر في الكلام؟».

سألت بحرارة:

ـ «لماذا؟».

ـ «لأن أباه كان يضربه كثيراً في طفولته.. ولكي يزوغ من والده كان يهرب منه ويتسلق الأشجار.. وهذا هو سبب مهارته في تسلّق الأشجار، كما أن سبب اضطراب كلامه هو خوفه من أبيه..».

نعم.. هذا هو (أوغزر) الذي طلب منه المدير في ذلك اليوم أن يخرج إلى اللوح.

كان على الجدار ثلاث لوحات، تضم إحداها رسماً لهيكل عظمي، يحتوي بداخله رسوماً للقلب والمعدة والجهاز الهضمي. وتضم الثانية توضيحاً للجهاز العصبي. أمّا الثالثة فتمثّل الهيكل العظمي وأنواع العظام التي يتكون منها.

أشار مرافق المدير (والذي اتضح أنه مفتّش) إلى الهيكل العظمي وسأل (أوغزر):

ـ «ما اسم هذه العظمة؟».

صمت (أوغزر) فأعاد المفتش السؤال:

ـ «ما هذه العظمة؟».

أشار (مينا) إلى (أوغزر) يفهمه أنها (عظمة الحجاب الحاجز). قال (أوغزر) متأتئاً:

ـ «الـ.. الـ.. حـ.. حـ.. حجاب.. الـ.. حـ.. حـ.. حا.. جز».

أشار المفتش إلى عظمة أخرى وسأل:

ـ «فما هذه إذن؟».

ظنّ (أوغزر) أنه قد أخطأ في الجواب الأول، وأن (الحجاب الحاجز) هو العظمة الثانية التي يشير إليها المفتش الآن، فأجاب:

ـ «الـ.. حـ.. حـ.. حجاب.. الـ.. حا.. جز».

أشار المفتش إلى عظمة (الساعد) وسأل:

فما هذه إذن؟».

أجاب (أوغزر) الذي سيطر عليه الارتباك:

ـ «الـ.. الـ.. حـ.. حـ.. حجاب.. الـ.. حا.. جز».

أشار المفتش إلى إحدى عظام الرقبة:

ـ «ما هذه؟».

أجاب (أوغزر) مرة أخرى: «الحجاب الحاجز».

صارت كل عظام الجسم عنده (حجاباً حاجزاً). وأخذ يتصبب العرق من وجهه لكثرة ما شدّ على نفسه وهو يحاول الكلام والتغلب على تأتأته.

أخذ المفتش من الغضب يتأتيء مثل (أوغزر):

ـ «إ.. إذ.. إذن.. ما.. ها.. هذه؟».

أجاب (أوغزر) من جديد: «الحجاب الحاجز».

لم يعرف المفتش ماذا يقول لأوغزر، فصاح:

ـ«ألم تتعلم سوى هاتين الكلمتين؟ انقلع يا بليد..».

تضايق المسكين (أوغزر) جداً.. وانقطع عن المدرسة منذ غذ ذلك اليوم.

..لقد كانت طريقة المفتش غير المناسبة هي السبب وراء هجران (أوغزر) المسكين للمدرسة وانقطاعه عن التعلم. فلو أن المفتش راعى حالته لما تحطمت حياته ومستقبله، بل ربّما كان أحد العظماء النابغين.

نعم يا زينب.. لم أشأ أن أخصّ نفسي بهذه الحكاية، فاثرت أن أكتبها لك... أرجو أن تردّي على رسالتي فور وصولها...

فأنا قلق عليك، وأخشى أن تكوني مريضة، لا سمح الله..

في انتظار الجواب الفوري.

أحمد تارباري

○ حفلة ميـلاد

أنقرة أول فبراير /١٩٦٧

أخي أحمد، أعتذر عن تأخري في الكتابة إليكَ بضعة أيام بسبب المرض. وأرجو أن لا تقلق، فإنّ مرضي لم يكن مهماً.. بل مجرّد برد عابر.

كان بوسعي أن أكتب ردّاً على رسالتك، ولكن حيث أن أخي (متين) لم يكن على ما يرام هو الآخر، وكان يقضي فترة من الراحة، فإنّه لم يكن قادراً على توصيل الرسالة إلى مكتب البريد. كما أنني لم أشأ أن أطلب من أمّي أو أختي أخذ الرسالة للبريد..

لقد تحسنت حالتي اليوم وذهبت إلى المدرسة. وعندما عدت منها قررت أن أكتب إليكَ، ولكن أمّي نادتني وقالت:

ـ«زينب.. لكِ رسالة». ويبدو أنها قد قرأت اسمك على الغلاف، فقالت ضاحكة:

ـ«إنها من أحمد.. يا لهذا الأحمد كم هو طيّب ووفيّ، إذ لا ينساكِ أبداً..».

بعد قراءة رسالتكَ ذهبت وجلست بجانب سرير (متين) إنّه لم يعد إلى وضعه الصحي الطبيعي بعد.. يعاني من بعض الحرارة. قست درجة حرارته فكانت ٣٨ درجة.

لقد كان مرضنا بفعل أيدينا ...

قبل بضع ليالٍ، كان أحد زملائي في الصف، واسمه (أتامان)، يحتفل بعيد ميلاده.. وقد أصابني المرض في بيتهم. كنّا ثلاثة من تلاميذ المدرسة ذهبنا إلى هناك، وقد مرضنا ثلاثتنا.

كانت أمّي وأمّ (أتامان) قد تعارفتا في اجتماع لمجلس البيت والمدرسة، ودعتنا أم (أتامان) لحضور حفل ميلاد ابنها. وقد أخذت عنوان بيتنا وقالت لأمّي:

ـ «سوف آتي بالسيارة وآخذهم..».

أجابت أمّي:

ـ «لا تتعبي نفسك.. سأرسل الأولاد إلى بيتكم».

كما دعت أمّي وأبي لحضور الحفل.

وافقت أمّي أخيراً تحت إلحاح المرأة وإصرارها. ومع أن أبي كان معارضاً ويقول:

ـ «إنه عيد ميلاد للأطفال، فما المناسبة لذهابنا نحن؟».

ولكن أمّي أصرّت على قولها وأجابت:

ـ «لقد وعدتهم.. فإذا لم نذهب سيزعلون».

اشتريت لصديقي هدية عبارة عن كتاب. كما اشترى له متين قلم حبر.

بعد الظهر جاءوا ليأخذونا، وتمّ التعارف بين أبي وأب (أتامان) داخل السيارة. كانت سيارتهم أنيقة فخمة جدّاً.

..ربمّا تظنّ أنني أغتاب الناس فتتضايق.. ولكني أقول الذي رأيته..

إن ثراء أسرة (أتامان) يتضح منذ الوهلة الأولى.. ولكنهم ليس لديهم ذرّة من الذوق.. الأثاث الثمين والموجودات الغالية، متراكمة فوق بعضها متناثرة في الغرف هنا وهناك دون أدنى ترتيب أو نظام وكأنها في دكان للأدوات المستعملة.

وأطرف من ذلك طريقة حديث والد (أتامان) فكلّما أراد أن ينطق عبارة قال: «خادمكم».. ثم أعقبها: «سيادتكم».

كنّا في الحفل خمسة عشر طفلاً، ولكن عدد الكبار يتجاوز الثلاثين أو الأربعين شخصاً يشاركون في حفل ميلاد!

قال (متين) لأمّي:

ـ «ألا يكون الحفل لميلاد والد (أتامان)؟!».

كانت أمّي معتادة، إذا سأل أحدنا سؤالاً في غير محلّه أو أساء الحديث، قرصته.. وهنا، عندما قرصت (متين)، خلت من شدة القرصة أن جلده قد خرج في يدها! ولكن المسكين مع ذلك لم يتأوّه، بل تحمل الألم بهدوء غريب.

قالت أمّ (أتامان) لأمّي:

ـ«لم نجد في بيتنا متسعاً، فلم نتمكن من دعوة الجميع: أكثر الله الأصدقاء! والمعارف كثيرون، فإذا لم توجّهي لهم الدعوة زعلوا... قلت لزوجي: في السنة القادمة سيكون الاحتفال بميلاد الأولاد في فندق من الدرجة الأولى..

إن زوجي رجل طيب جدّاً ـيحفظه الله ـ ويوافق على كل ما أطلبه دون جدال».

ثم سألتْ أمّي:

ـ«وكيف زوج حضرتك؟ مطاوع أم حرون؟».

ثم أتبعت قولها بضحكة خليعة. تضايقت أمّي كثيراً وأجابت:

ـ«زوج من؟ زوجي؟».

ـ«نعم.. زوجك. خافض رأسه أم لا؟».

أرادت أمّي التي لم يعجبها الحديث أن تغيّر الموضوع فقالت:

ـ«كأنّ الجو حار كثيراً؟».

ـ«بلى.. ففي عيد ميلاد ابني، خفت عليه من البرد، وفتحت التدفئة على آخرها».

وحيث كانت أمّ (أتامان) ـعلى العكس من أمّي ـ تحبّ كثيراً أن تتحدث عن زوجها، وعن نفوذها عليه، فقد شرعت في الحديث من جديد ودون مقدمات، فقالت:

ـ«إن زوجي لا يقصر في الترويح عن نفسه. فعلى الرغم من أنه جالس في مكتبه دون عمل، إلاّ أن لديه ثلاث سكرتيرات.. وهو يبدلهن كل شهر!».

وأضافت وهي تضحك مقهقهة:

ـ«صنف الرجال، هذا دأبه دائماً يا أختي... تضحّين بالروح من أجلهم، ولكن عيونهم تظل على النساء الأخريات!».

احتقن وجه أمّي بالغضب، وقالت لي ولمتين:

ـ«اذهبا عند أبيكما».

كان الرجال مجتمعين في الصالة.. والطاولات غاصّة بالطعام والمشروبات والفواكه. تضايق والدي، الذي كان يتبادل الحديث مع والد (أتامان)، من مجيئنا إليه فقال:

ـ«لماذا تركتما أمّكما وجئتما إلى هنا؟».

أجاب (متين):

ـ«هي التي بعثتنا!».

أشار أبو (أتامان) إلينا وقال لأبي:

ـ«هذان لسيادتكم؟».

ـ«نعــم».

ـ«ليبارك لكم الله فيهما... نعود إلى موضوعنا.. خادمك الأمين ـأناـ لا أحب البخلاء أبداً. نأتي إلى بخل النساء.. آه من بخل النساء! والله ما فيهن واحدة سخيّة! يا إلهي من زوجتي هذه.. إنك لا تدري كم هي يهوديّة في بخلها! إنها من أجل التوفير في المصاريف، تعطي الخدم والشغالات من البرتقال الفاسد والمنمَّش!.. أقول لها دائماً: (يا امرأة، دعكِ من هذه الطباع القذرة، فالخدم والشغالات يجب أن يأكلوا من نفس طعام أسيادهم).. ولكن، هل تظنّ أن هذا الكلام يؤثر فيها؟.

أنا لا أتحدث عن الإنسانية والعدل والكرم.. إلى جهنم بكل هذه الأشياء. ولكن الإنسان عليه أن ينتبه إلى نقطة هامة: إنك إذا حرمت الخادم أو الشغالة من برتقال لا يكلف عشرة قروش، فإنهما قد يكسران وعاء من البلور أو صحناً من الصيني لا يقل ثمنه عن عشرين أو ثلاثين ليرة!.. فماذا تستطيع أن تقول لهما عندئذ؟ سيقولان لك: وقع من يدي وانكسر...

هذه واحدة، أمّا الثانية، فإنهما قد يسرقان منك عشرة أضعاف. وكيف يكتشف الإنسان ذلك؟ إنه لا يستطيع أن يظل واقفاً فوق رؤوسهم يراقبهم ليل نهار... ولكن... أين الآذن التي تسمع؟».

قال لنا والدي:

ـ«هيّا... إذهبا عند أمكّما».

وهكذا تحلّل من همّنا، وأقصانا عنه. كان هنالك الكثير من الأطفال في مثل حالنا ضائعين تائهين بين آبائهم وأمهاتهم. يذهبون إلى أمهاتهم فيبعثن بهم إلى آبائهم، فيذهبون إلى آبائهم فيرسلونهم إلى أمهاتهم.

سمعت امرأة تقول للمرأة الجالسة بجانبها، بعد أن تضايقت من الجلبة والضوضاء التي يصدرها الأطفال:

ـ«لا ينبغي اصطحاب الأطفال في زيارة.. فالمرء يختنق من كثرة ما يحدثونه من جلبة وفوضى!».

قال أبي لأمّي:

-«الأفضل أن نعود إلى البيت».

أجابت أمّي:

-«ليس تصرفاً طيباً.. عيب... لنجلسْ قليلاً ونرى ما يصير!».

تقدم أبو (أتامان) من أبي وهو يحمل جريدة في يده وقال:

-«خادمكم الأمين -أنا- هيء.. هيء.. هيء.. أقدّم الكثير من المساعدات للأطفال الفقراء.. ففي ليلة العيد من كل سنة أشتري العديد من الأشياء وأوزّعها على الأطفال... أنظرْ، ذلك مكتوب في الجريدة...».

أخذنا -نحن الأطفال- إلى غرفة كانت أعدت للاحتفال.. كانت كل الهدايا التي أحضرت لأتامان موضوعة على منضدة كبيرة في منتصف الحجرة.

كان الجوّ في الغرفة حارّاً، ففتحوا النوافذ. كنت أقف مع (متين) بجوار النافذة.. وهنا في مكاننا هذا أصبنا بالبرد.

كنّا نهمّ بالانصراف حين جاء أبو (أتامان) وقال:

-«إلى أين؟ إنكم لم تتعشّوا بعد... انتظروا، سوف أطلب الأكل من أحد المطاعم...».

قال أبي:

-«لدينا شغل.. اسمحوا لنا بالانصراف».

عندما صرنا في الخارج، نظرت أمّي إلى أبي، فرأت أنه متكدّر مغتاظ فقالت:

-«أرجو المعذرة... فأنا لم أكن أعرف أن الأمور هكذا... لقد أصّرت عليّ تلك المرأة كثيراً في الدعوة، ولم تعطني مجالاً للرفض..».

في اليوم التالي لذلك اليوم بلغت درجة حرارتي تسعاً وثلاثين درجة، كما مرض (متين) كذلك.

..لقد طلبت مني في رسالتكَ السابقة أن أكتب لك كل ما أعرفه من موضوع (حكمت).. لقد مضى على إنقطاعها عن المدرسة أسبوع كامل، ولا أدري ما الذي حلّ بها... كما أنه ليس هنالك من يعرف مكان سكنها.

سوف أحاول خلال هذا الأسبوع أن أكتب لك كل ما يبلغني من أخبارها، لأن ما جرى لها يقلقني ويشغل بالي. وإني لواثقة من أن اهتمامك بأمورها لا يقل عن اهتمامي.

أرجو أن لا تتأخر رسالتك كما تأخرت رسالتي. أنا في انتظار رسالتك.

زينب يالكر

○ تربية الأطفال النابغين!

اسطنبول ٥/فبراير/١٩٦٧

أختي زينب، أرجو من الله أن تكوني وأخوكِ في صحة دائمة. كما أشكر والدتك الكريمة على إطرائها لي، وأرجو أن تبلّغيها سلامي.

صديقتي العزيزة، لقد أجدت وصف حفل ميلاد (أتامان)... وبالمناسبة، هل تدرين أنني لم يسبق لي أبداً أن احتفلت بعيد ميلادي؟ ليس في حياة أسرتنا وجود لمثل هذه العادات والمناسبات. ولهذا فإني لا أشارك في الاحتفالات بأعياد الآخرين.

ذهبت في إجازة رأس السنة مع أمّي لزيارة بعض أقاربنا حيث بقينا في ضيافتهم ثلاثة أيام. كانت إحدى زميلات بنت قريبنا في المدرسة تحتفل بعيد ميلادها، فدعتنا مع المدعوين.

من تلك الحفلة بقي في ذاكرتي أمران لا أظن أنني سأنساهما أبداً. أولهما طفل بالغ الشقاوة والشيطنة كان يقلب عالي البيت سافله.. ولم يدع شيئاً لم يفعله!

سمعنا فجأة جلبة وصراخاً ينطلقان من داخل الحمّام. وكان باب الحمّام يبدو وكأنّ أحداً يدقّه من الداخل بقبضتيه حتى ليوشك أن يقتلعه من مكانه.

هرع جميع الضيوف نحو الحمّام.. فتبيّن أن شيطاناً من الأطفال قد أقفل باب الحمّام على إحدى السيدات بالمفتاح، وحبسها في الداخل!

اختفى الطفل الذي فعلها، وانطلق صاحب البيت وزوجه وابنته يبحثون في الغرف عن المفتاح الاحتياطي للحمّام. كان الضيوف لا يتمالكون أنفسهم من الضحك، بينما راحت سجينة الحمّام تدقّ بابه بقبضتيْها!

كان بين الضيوف رجل سمين دمعت عيناه من فرط الضحك، تقدّم وقال:

-«هذه فعلة ابني.. لا أحد غيره يفعل هذه الأفعال الحلوة.. أين.. أين هو حتى ألعن أباه!».

لم يعثروا على ابن الرجل السمين، أمّا الرجل نفسه فقد استمرّ يعدّد خصال ولده:

-«ما شاء الله، إنه في غاية الذكاء.. لا يستطيع أن يهدأ دقيقة واحدة.. كما أن أعماله تنمّ عن الذوق دائماً!؟؟».

كانت المرأة المسكينة تعاني من حبسها في الحمّام، ووالد الطفل ماضٍ يخطب عن

أفعال ابنه الحلوة. كان يقول:

-«هكذا كنت في طفولتي! وملعون الوالدين طالع مثلي! ذكي جدّاً، زملاؤه يدرسون أربعاً وعشرين ساعة، أمّا ابني فلا يفعل شيئاً، ولكنه في كل سنة يرفّع للصف التالي. ملعون الوالدين ذكي جدّاً وذاكرته جيدة... وأنا لا أحبّ الذين يعملون ويتعبون على الفاضي».

كان صاحب البيت وزوجه وابنته ما يزالون يبحثون عن المفتاح في غرف البيت، ولكن الرجل كان يقول دون أن يخالطه خجل:

-«أنظروا تحت السرير، فولدي معتاد على أن يختبيء تحت الأسرّة!».

انحنى صاحب البيت ينظر تحت السرير. خشخش صوت من فوق رأسه، فاعتدل ونظر إلى مصدر الصوت، فإذا هو المفتاح، ثم سقط ولد من على الخزانة فوق السرير!

قال الرجل السمين:

-«أرأيتم؟ ألم أقل لكم إنها فعلة ابني؟ إن شيطنته هذه من ذكائه!».

لم يسلم أحد في ذلك اليوم من شرّ هذا الولد. وكادت جلسة السرور والانبساط تتحول بسببه إلى معركة خصومة وعداوة!

...والشيء الثاني الذي لن أنساه، كان ولداً آخر، عرفتني عليه زميلة قريبنا.

كان ولداً ناحلاً شاحب الوجه، وإحدى عينيه حولاء. تصافحت وإياه، ثم سألته عن اسمه فلم يجب. ظننت أنه أصمّ أيضاً، فأعدت سؤالي بصوتٍ عالٍ.. فوقف يفكّر مدة كمن يحاول أن يحلّ مسألة صعبة، ثم قال لي اسمه.

سألت:

-«في أي صفّ أنت؟».

مرة أخرى، فكّر، ثم أجاب.. وكأنه معتاد على أن يفكّر بكل حرف ينطقه. تضايقت ورحت لابنة قريبنا أسألها:

-«هل هذا الولد معتوه؟».

ضحكت البنت وأجابت:

-«من كان كذلك، كيف يكون معتوهاً؟ لقد تعمّد أبوه تربيته على هذا النحو!».

قالت بنت كانت تقف بجوارنا:

ـ«في المدرسة يدعونه (الأمير ذو التربية العالية).. إنه حين يجيب على أي سؤال، يفكّر في كل كلمة.. وهذا علامة التربية الراقية والتنشئة السليمة! يعتقد أبوه أن «على الرجال العظام أن يفكروا أولاً ثم يتحدثوا!».

كانت البنات أنفسهن يضحكن من هذه الوقائع.. قالت إبنة قريبنا:

ـ«إن إباه عاقل وحكيم جدّاً! وقد قضى مدّة وهو يقرأ سير حياة نوابغ وعظماء الرجال، وعرف الطريقة التي يتربّى عليها النابغة، والآن يربّي ابنه تربية النوابغ! وهو نفسه، حين عرف أن العظماء لا يتزوجون مبكرين، فقد أخّر زواجه وظل عازباً حتى بلغ الخمسين كي يورث ابنه النبوغ!».

سألت:

ـ«ومن أين عرفت ذلك؟ هل قاله لك الولد بنفسه؟».

ـ«إن كل أهل البلد يعرفون بهذا الموضوع، وقد سمعنا به من الآخرين..

وحيث أن النوابغ يكونون في العادة ذوي قوام نحيف، فقد كان يتحكم في تغذية ابنه ويمنعه من تناول الغذاء الكامل، كي يكتسب قوام النوابغ وسيماءهم!.

وقد أتى عليه حين من الوقت كاد يموت فيه من شدة الهزال والنحول!».

سألت:

ـ«ولماذا صارت عينه حولاء؟».

ـ«لأنهم بدأوا بتربيته منذ طفولته المبكرة، فلم يكن الأب يسمح لأمّ الطفل بأن ترضعه الحليب الكافي، فكان منذ تلك الأيام نحيفاً ناحلاً نحول الأموات. وبسبب نحوله المفرط انزلق ذات يوم من حضن أمّه ووقع على الأرض فانحولت عينه..

ولكن والده بدلاً من أن يغتمّ ويزعل، طار من الفرح، لأنّ أحد الكتاب العظام كان أحول العينين! واليوم، فإن أغلى الأماني عند الوالد أن تكون قامة ابنه قصيرة لأنه كان قد قرأ في الكتب أن أكثر النوابغ والعظماء قصار القامة!».

وبعد أن سمعت هذا الكلام عرفت لماذا ظلّ صامتاً حين سألته عن اسمه... وأظن الآن، أن الأمور قد انقلبت إلى ضدها، إذ على أثر سوء تغذية هذا الطفل ضعفت ذاكرته ووهنت أعصابه حتى صار بالفعل في حاجة للتفكير لكي يتذكر اسمه!.

كنت قد سألت لي عن (حكمت)، ولا أخبار جديدة عنها إلى الآن. لا أدري ماذا حلّ بالمسكينة. أرجو أن تكتبي لي عنها بمجرد إطلاعكِ على أخبارها.

سأخرج الآن لأضع هذه الرسالة في البريد.. ثم أعود إلى المنزل لأعمل واجباتي

المدرسية.

إن يدي اليسرى تؤلمني كثيراً على أثر التطعيم ولا أستطيع تحريكها. أرجو لكِ الصحة والعافية من الله. وأدعو لكِ بالتوفيق.

أحمد تارباري

○ بنت غير مرتّبة

أنقرة ١٠/فبراير/١٩٦٧

أخي أحمد، قبل كل شيء، إليكَ هذا الخبر الذي بلغني بخصوص (حكمت).

لقد حضرتْ إلى المدرسة أمس، وقد تصالح أبوها وأمّها، ولهذا فهي تكاد تطير من الفرح..

هنالك خبر آخر أودّ نقله إليكَ.. فقد جمعتُ كل الرسائل التي بعثتَ بها إليّ حتى الآن.. كنت قبل اليوم أراكمها دون ترتيب في ركن من غرفتي، ولكنني قمت بترتيبها قبل عدة أيام، ثم وضعتها في ملف واحد منسقة حسب تواريخها.

لا تحسبنّ أنني قد صرت فتاة عاقلة، أو أنني لا عمل لديّ فقمت بترتيب الرسائل من قلة الشغل.. كلاّ، أبداً. وإنما هنالك أمر حدث فاضطرّني لأصير فتاة مرتّبة..

في البيت يسمونني (البنت الفوضوية).. أختي وأمّي وأبي، لا يكفّون عن انتقاد فوضويّتي والتذمر من عدم عنايتي بترتيب أموري... ومع أنني لم أكن أريد أن أصير فتاة مرتّبة، إلاّ أن الأمر لم يكن بيدي.

في صباح كل يوم ينبغي أن أقضي زمناً طويلاً وأنا أبحث عن كتبي ودفاتري، وأجمعها من كل ركن واحداً.

وتثور أمّي لذلك وتروح تلومني:

-«لا أدري إلى أين ستقودك هذه الفوضى وقلّة الترتيب؟».

وأجيب:

-«ماذا أفعل؟ لقد خلقت على هذا النحو».

قبل عدة أيام، تكرر هذا الموضوع... بحثت طويلاً عن كتبي ودفاتري فلم أعثر عليها.

بدأ أبي بالتذمر والانتقاد. وكان جدي وجدتي في بيتنا، فلم تعجبهما فوضويتي وقلة ترتيبي فزعلا هما الآخران. كما أن أختي حشرت أنفها، وتفضّلت بإسداء النصح إلي:

-«يا أختي .. لا ينبغي أن يكون الإنسان فوضوياً إلى هذا الحدّ».

بلغ بي القهر من تدخلاتهم أنني أردت أن أحمل خزانة أشيائي وألقي بها من النافذة لتتحطم في فناء الدار.

ولكني حين شربت قدحاً من الماء وأخذت عدّة أنفاس عميقة عاد إليّ هدوئي وأدركت أن الحقّ معهم. فقررت أن أضع حدّاً لهذه الفوضى، وأهجرها إلى الأبد، وأصير بنتاً مرتّبة منظّمة.

قمت على الفور وأفرغت كل محتويات خزانتي، كي أرتّبها وأضع كل شيء في محلّه.

عندما أخرجت كتبي من الخزانة، وجدت بينها زوجاً من الجوارب الرجالية، وقلم طلاء للشفاه، وبطاقتي معايدة.

أخذت كل ذلك إلى غرفة الضيوف. كانوا ما يزالون يتحدثون عن فوضاي وقلة ترتيبي.. رفعت الجوارب في يدي وسألت:

-«هذه لمن؟».

صاح والدي:

-«لي.. هذه أين كانت؟ أول أمس بحثت عنها ساعتين فلم أجدها».

-«لقد كانت بين كتبي!».

ثم رفعت طلاء الشفاه وسألت:

-«هذه لمن؟».

زعقت أمّي:

-«الله يقصف عمرك، هذه من أين استخرجتها؟».

-«كانت في كتاب الحساب!».

رفعت البطاقتين التذكاريتين:

-«هاتان لمن؟».

احمرّ وجه أختي وسألت:

-«هاتان أين وجدتهما؟ تعبت وأنا أبحث عنهما».

-«كانتا في خزانتي.. لا تخافي، فإني لم أقرأ ما هو مكتوب على ظهريهما.. تعالي خذيهما...».

عدت إلى غرفتي وانهمكت في ترتيب كتبي.. لم أجد قلمي الحبر .. هلكت من كثرة ما بحثت عنه.. وبدأت بالتذمر.

سألت أمّي:

-«ما لكِ تهمهمين؟ ما الذي أضعتيه هذه المرة؟».

-«قلمي الحبر غير موجود».

صاحت بي أمّي:

-«ما هذه البنت التي لا تجيد شيئاً! حتى قلمك لا تعرفين كيف تحافظين عليه؟».

تدخلت جدتي بدورها وقالت:

-«متى ستقلعين عن إهمالك هذا؟».

كادت القضية تنتهي عند هذا الحدّ، إلاّ أن والدي قال يتابع حديثها:

-«كم مرّة قلت لكِ ضعي كل شيء في محله؟ إنني ما رأيت في حياتي بنتاً بهذا القدر من الفوضى والإهمال».

قالت أختي:

-«تعالي خذي قلمي لتكتبي به الآن.. ولكن لا تضيّعيه.. ها؟».

راحت أختي تحضر قلمها من حجرتها. ولكن غيبتها هناك طالت.. ثم بلغنا صياحها من حجرتها وهي تقول:

-«من الذي أخذ قلمي من محلّه؟».

تجدد حنق أمّي فقالت:

-«إن الاولاد والبنات الذين في مثل سنّكم يديرون بيوتاً.. وأنتم عاجزون عن المحافظة على أقلامكم ودفاتركم!».

ثم راحت أمّي تشكو وتتذمّر:

-«لا أدري عمّن ورثوا هذه الفوضى إنه لم يسبق لبيتنا أن كان بمثل هذه الفوضى وقلة النظام».

أمّا جدّي الذي كان ضابطاً متقاعداً، معتاداً على النظام والضبط والربط، فقد غاظه كلام أمّي فقال:

-«إنك تنصحين أطفالاً في حجم عقلة اصبعكِ.. وتقولين ممن ورثوا هذا!

ورثوه عنكم! أنتم تمخّطتم فنزل هؤلاء من أنوفكم! إنكم أنفسكم أسوأ من الجميع.. لا تعرفون أبداً أين وضعتم أي شيء».

-«يعيش جدّي..!».

سرّني وقوف جدّي إلى جانبي ومناصرته لي.. كنت أعلم أن أحدا لا يملك الجرأة على الرد عليه. ولكن جدّتي أتلفت الموضوع إذ قالت:

-«إنك بكلامك هذا تدلل الأولاد وتزيد في انفلاتهم!».

ولكن جدّي متى بدأ الحديث، فليس من السهل أن يكفّ عنه، أجاب في انفعال:

-«إن الطفل يتعلم من والديه.. فعندما لا تكون أمور الكبار مضبوطة فما الذي ننتظره من الصغار؟ حين لا تكون تصرفات الأب والأمّ تبعاً للنظام، فمن البديهي أن لا تدخل فكرة التنظيم والترتيب في عقول الصغار.. في البيت يجب أن يكون كل شيء في مكانه الخاص، حتى تستطيعوا العثور عليه عندما تحتاجون إليه، ولا تضيّعوا وقتكم هدراً».

أيّد والدي كلام جدّي فقال:

-«إن الوالد منذ أيام خدمته العسكرية قد تربّى على التنظيم والترتيب.. وأنا كذلك، منذ سنين وأنا أحفظ كل شيء من أشيائي ولوازمي في مكانه... أعرف ولاعتي في أي جيب من جيوبي.. ومنديلي في أي مكان.. وأين وضعت محفظة نقودي».

هزّ جدّي رأسه وقال:

-«نعم.. على الإنسان أن يكون هكذا!».

-«وكيف يمكن تطبيق مثل هذا الأمر؟!».

غضب والدي وقال:

-«التجربة لا تكلف شيئا!».

ولكي يزيد في جلب الانتباه قام من مكانه وأغمض عينيه وقال:

-«أنظروا... إنني أضع ولاعتي دائماً في الجيب الأيسر لصدرتي».

نظرنا إليه جميعاً بانتباه.. دسّ يده في الجيب الأيسر لصدرته وهو ما يزال مغمض العينين، لكي يخرج الولاعة! بحث عنها هناك كثيراً ولكنه لم يعثر عليها.. غضب كثيراً.. ولكي يحفظ ماء وجهه غيّر وجهة الحديث فقال:

-«مثلاً.. أعرف مكان قلمي وأنا مغمض العينين! إنّي أضعه دوماً في الجيب

الايسر العلوي من معطفي».

ثم أدخل يده مرّة أخرى في جيب معطفه.. وبحث هناك مدّة.: فلم يكن للقلم في جيبه وجود.

ضحكنا جميعاً، ولكننا لم نجرؤ على أن نقول شيئاً. غير أن جدّي قال ساخراً:

-«أراك قد حفرت بئراً في جيبك!».

تفصّد العرق من جبهة والدي خجلاً، وقال:

-«كأن بطانة جيبي مثقوبة.. انزلق منها.. ها.. ها هو!».

دس يده داخل بطانة معطفه وأخرج شيئاً. ولكن هذا لم يكن قلماً، وإنّما أخرج من بطانة معطفه كبة خيوط تخصّ أمّي!

سأل والدي متضايقاً:

-«كبّة الخيوط هذه ماذا تفعل في جيبي؟».

هرعت أمّي إليه وخطفت الكبة من يده قائلة:

-«آه.. أول أمس أردت أن أخيط زراً لمعطفك.. فنسيتها فيه!».

ضحك جدّي حتى انتابه السعال.. وبينما هو يسعل أخذ يبحث في جيوبه عن منديله، وبعد بحث قصير قال:

-«إن منديلي في جيب معطفي».

ركضت أحضر منديل الجدّ من جيب معطفه الذي كان قد علقه على المشجب في الممّر. فتّشت جيوبه كلها فلم أعثر على المنديل. قلت:

-«جدّي... إنه غير موجود هنا».

صاح بي.

-«أربعين سنة وأنا أضع المنديل في الجيب الأيمن لمعطفي».

جاءت أمّي وأخذت تبحث معي عن المنديل، ولكن دون فائدة. قال جدّي:

-«أعطيني المعطف لأرى.. فأنتم لا يُرتجى نفعكم في شيء».

أحضرنا له المعطف، فتبيّن أن الخياط عندما قلب المعطف وجهاً لظهر في العام الماضي نسي أن يصنع له جيوباً.. فمعطف الجدّ أصلاً بدون جيوب!

أراد الجدّ من فرط غيظه أن يشعل سيجارة ولكنه لم يجد علبة السجائر رغم بحثه الدقيق. قال متضايقاً:

ـ« هذه... علبة سجائري أين هي؟ ».

أجابت جدّتي:

ـ«كانت هنا.. فيما حولنا».

رحنا جميعاً نفتش عنها. كنّا مثل فراخ الدجاج التي تبحث عن العلف. وانتشرنا في المكان: جدتي، وأمّي، وأختي، وأنا، والخادمة، نبحث عن علبة سجائر الجدّ بلهفة واهتمام.

كان جدّي غاضباً ويصرخ بالجميع:

ـ«استعجلوا في البحث... أوجدوها حالاً وإلاّ..».

كنّا جميعاً نحسب حساب جدّي ونخشاه، ولذا لم نجرؤ على الكلام. دخلت أمّي، وهي سمينة كثيراً، تحت الكنبة تنظر وتفتش، ولكنها لم تستطع الخروج وانحشرت هناك.

أمسكنا برجليها أربعتنا وجذبناها لنخرجها بعد ذلك بصعوبة. كان كل منّا يبحث في مكان... واحد يبحث على الرفوف، وآخر خلف الخزائن، وثالث تحت الفراش.

انحدرت حواجب جدّي كثيفة الشعر فوق عينيه و.. صاح:

ـ«أنا لمن أحكي؟ استعجلوا.. أوجدوها».

دخلت إلى المطبخ. بحثت كل مكان فيه.. وفي النهاية نظرت داخل الثلاجة، فوجدت فيها زوجاً من الجوارب محفوظاً هناك، سألت:

ـ« هذه جوارب مَنْ؟».

أجابت أمّي:

ـ«يي.. يعدمني عمرك! هذا أين كان؟ لقد بحثت عنه شهراً كاملاً..».

دخلت أختي وفي يدها وصل قبض وقالت:

ـ«ما هذا؟ هل تحتاجونه ؟».

أجاب أبي:

ـ«هذا وصل فاتورة الماء يا بنت.. لماذا أخرجته؟ لقد بحثت عنه كثيراً..».

ـ«كان على الشرفة تحت آنية الزهور».

كان كل منا يعثر أثناء البحث على شيء من الأشياء فيحضره ويسأل:

ـ« هذا لمن؟».

وكان جدّي يصرخ بالجميع:

-«استعجلوا .. اعثروا على سجائري».

دخلتُ مكتب والدي، فعثرت فيه على (حمّالة صدر)، سألت:

-«هذه لمن؟».

ظننت أنها لأختي، ولكن خادمتنا خطفتها من يدي غاضبة وصرخت:

-«هذه لماذا جلبتها؟».

كانت الأشياء والأدوات التي فقدناها شهوراً، تخرج اليوم من الزوايا والأركان. (عثر والدي على اثنتين من شوك الطعام في إناء الزبالة).. قالت أمّي للخادمة: «اذهبي بسرعة واشتري للجدّ علبة سجائر من الدّكان».

نهض جدّي من مقعده ليدفع ثمن السجائر، فوقعت علبة سجائره التي كنّا نبحث عنها من تحته!

ازداد غضب جدّي وصاح:

-«من الذي وضع علبة السجائر هذه تحتي؟ بحثت عنها عدّة ساعات، فلماذا لم تقولوا لي عن مكانها؟».

ضحكنا جميعاً غصباً عنّا. أمسكت أمّي بأذني وجذبتها وقالت:

-«إذا أسأتِ الأدب هذه المرة فسوف أصبّ الفلفل في فمك... أنتِ فاهمة؟».

منذ ذلك اليوم أصبحت راغبة بصدق في أن أصير فتاة مرتبة. لأني لمست بنفسي كم تتلف الفوضى أعصاب الإنسان...

لقد وضعت رسائلك في مغلف واحد. أتمنى أن يزيد عدد هذه الرسائل، حتى يصير عدد المغلفات مئة...

أرجو لك التوفيق والصحة والسلامة، من الله تعالى.

زينب يالكر

○ لا تفتح فمك... بالكلام

اسطنبول ١٥/فبراير/١٩٦٧

صديقتي العزيزة زينب، خلال السنوات الأربع، التي قضيناها معاً في مدرسة واحدة، كنت أرى أنكِ من التلميذات المرتبات.

وقد أدهشني كثيراً أن ينادوكِ في البيت بلقب (البنت الفوضوية). والطّريف في

الأمر أنّني في بيتنا أحمل نفس اللّقب! ولكنني أعترف بأنّني أستحق هذا اللقب بجدارة، إذ لا يكاد يمرّ يوم دون أن أخربش شيئاً... يوماً أكبّ صحن طبيخ وأسكب محتواه على الارض.. ويوماً أكسر قدحاً.. ومرة أكسر صحن فنجان... وعلى الرغم من حرصي الشديد على أن أكون مرتباً، إلاّ أن الأمر ليس في يدي!

كنت قد كتبتِ لي بأن والدتك تقول لمتين: «سوف أصبّ الفلفل في فمك».

عسى أن لا يُخيفك هذا الكلام. إن كل الأمهات يقلن ذلك. وأمّي تقوله لأختي (فاطي) بين حين وآخر... (فاطي) صغيرة كثيراً، أكملت سنواتها الخمس منذ وقت قريب، وهي ما زالت دون سنّ المدرسة... وأنا أيضاً، عندما كنت صغيراً كانت أمّي تقول لي: «سوف أصبّ الفلفل في فمك». ولكنها لم تفعل ذلك أبداً.

قبل بضع ليالٍ زعلت أمّي من (فاطي) زعلاً شديداً، وصرخت بها: «سوف أصبّ الفلفل في فمك». في الواقع، لقد كان الحق مع أمّي، لأن (فاطي) أساءت التصرف وأحرجتنا أمام مدير الدائرة التي يعمل فيها أبي.

وقد جرت الأمور على النحو التالي. كان أبي دائم الإغتياب لمدير الدائرة التي يعمل فيها. فكلما حضرت سيرة هذا المدير راح أبي يعدد مساوئه علناً ودون تحفّظ. فكان يعتقد بأن المدير رجل كذاب ومتقلب ومخادع..

قبل عدة أيام، عندما عدت من المدرسة إلى البيت، أحسست أن في البيت أمراً غير عادي. فقد فُرشتْ سجادتان جديدتان في حجرة الضيوف، كما انبعثت من المطبخ روائح الطعام اللذيذ.

سألت أمّي:

-«ماذا هنالك؟ أعندنا ضيوف؟».

-«نعم.. رئيس والدك سيأتي الليلة إلى هنا».

بدلاً من أن يسرّني سماع الخبر خفتُ كثيراً! فقد كنت أعرف أن الأمور بين والدي ومديره ليست على ما يرام، ولذا خشيت أن يتشاجرا. قلت متعجبا:

-«هذا الرجل الوضيع.. أي شغل له في بيتنا؟».

عضّت أمّي على شفتيها وقالت:

-«ما هذا الكلام الذي تتلفظ به يا ولد؟ إن هذا المدير إنسان عظيم!».

-«كائناً من كان، فما دخله بنا؟ إن أبي ينفر منه».

-«لقد زال الخلاف بينهما .. ويريد المدير أن يسلم والدك وظيفة مهمّة».

في عصر ذلك اليوم عاد والدي أبكر مما يفعل في العادة. أطلّ في المطبخ أولاً، ثم تفحّص حجرة الضيوف، وعندما اطمأن إلى أن كل شيء جاهز، توجّه إلى النافذة وانهمك في انتظار المدير!

كان المدير قد قال بأنه سيأتي في الساعة السادسة.. ولكن الساعة قاربت السابعة ولم يأتِ بعد! شرع أبي في التذمر والتأفّف:

ـ«لا أدري أين تأخر هذا القليل الحياء... لماذا لم يأتِ؟».

ثم أطلق سيلاً من الشتائم والأوصاف البذيئة لمديره، لا أستطيع أن أكتبها..

نادت أمّي على (فاطي) وأخذت توصيها بالأشياء التي عليها مراعاتها أمام الضيوف:

ـ«بنتي الشاطرة.. لا يجوز أن تحرجينا أمام الضيوف. إيّاكِ أن تضعي اصبعك في أنفك! وإذا سعلت فضعي يدك أمام فمك... وإذا وقع طعام على الأرض فلا تلتقطيه وتأكليه! إذا وجّه إليكِ سؤال فلا تقولي (ها)..».

ـ«إذن فماذا أقول؟».

ـ«قولي (نعم).. لا تنسي قول (نعم) أبداً. دائماً إبدئي بنعم واختمي بنعم».

كان والدي ما يزال يرقب الشارع من النافذة. وقد تعب، وهو يراقب فراح يسبّ آباء وجدود المدير دون انقطاع.

ـ«إذا لم يأتِ فإلى جهنم! ماذا سيحدث إن لم يأتِ؟».

كنت أقول في نفسي:

ـ«يا ربّ، لا تجعله يأتي! لأن أبي قد يسمعه هذه الشتائم فيتشاجران!».

وهنا سمعنا صوت نفير سيارة ينطلق من الشارع. كان أبي يذرع الغرفة ذاهباً آتياً، فهرع إلى النافذة وهتف في نشوة:

ـ«ها هو! أتى..».

نظرت من النافذة إلى الشارع. كانت سيارة فاخرة قد وقفت أمام بيتنا. أخذ قلبي يخفق بعنف بينما رحت أفكر:

ـ«إذا تشاجرا فماذا أفعل؟».

وقررت إذا تشاجرا أن أتسلل من وراء المدير وأضربه بشيء على رأسه!».

فتح أبي الباب وهبط الدرج إلى الشارع. ووقفت أنظر إليهما من مكاني في الغرفة. انحنى أبي في الشارع حتى تحدّب! ظننت أنه سيلتقط حجراً ويضرب به رأس مديره!

ولكن، لا ... فقد تبيّن لي أنه ينحني احتراماً للمدير !

عندما صعدا الدرج سمعت والدي يقول:

ـ«لقد انتظرنا سيادتكم على أحرّ من الجمر ! حقّاً لقد تفضّلت علينا وشرفتنا !».

دخلا إلى بيتنا ووالدي يطلق هذه التحيات وأمثالها، ثم أخذ معطف المدير وعلقه على المشجب. ثم قال لي، وقد كنتُ واقفاً بجوار الحائط مبهوتاً:

ـ«لماذا لا تبوس يد عمّك؟».

قبّلت يد السيد المدير مجبوراً. وكان والدي منخرطاً دون توقف في تعداد محاسن المدير ومناقبه. دخلا إلى الحجرة. وجلسا يتهامسان فترة. وكان كلام والدي يصل إلى مسامعنا بين حين وآخر:

ـ«صحيح... على الرأس والعين... كما تأمرون... بكلّ سرور...».

دخلت أمّي الغرفة وقالت:

ـ«لقد جهزنا عشاء متواضعاً لا يليق بالمقام... تفضلوا إلى المائدة...».

هزّ المدير رأسه قائلاً:

ـ«كلاّ.. لا أستطيع تناول شيء خارج بيتنا».

قلت في نفسي:

ـ«لقد تعبت المسكينة أمّي كل هذا التعب وحضّرت العشاء بألف حيلة ووسيلة، والآن ها هو هذا المحترم يتدلّل ولا يريد أن يتعشّى».

وفي النهاية، وبعد أن أقسم أبي ألف قسم معظم، وبعد أن ترجّى وتوسّل، أفلح في احتجاز المدير للعشاء.

عندما جلسنا إلى المائدة كنتُ بالغ الغيظ من استعلاء المدير وحركاته المفتعلة حتى لقد تمنيت لو أطبق على حلقه وأخنقه.. كان جسمي يرتجف كلّه من الغيظ.

قال والدي:

ـ«يا ولد.. املأ كأس الماء لسيادة المدير !».

حاذرت كثيراً أن لا تصطدم يدي بالكأس فأكدّر المدير. ولكن لسوء الحظّ، ارتجفت يدي فجأة واندلق الماء على المائدة.

غضبت أمّي وقالت:

ـ«إنّ يد هذا الولد منحوسة».

وأكمل والدي حديثها قائلاً:

-«ولد بهذا العمر ولا يعرف كيف يصبّ ماء».

كدتُ أذوب خجلاً. أخرج والدي منديله ليجفف المائدة، فاصطدمت يده بوعاء (السلطة) فانقلب الصحن وانسكب ما فيه في حضن المدير.

لطمت أمّي خديها:

-«واه.. يا للمصيبة.. انسكب فوق ملابسك؟».

اكفهرّ وجه المدير حتى ظننت أنه يوشك أن ينهال بالصفع على وجه والدي!

نهضت أمّي على عجل لتنظف ملابس المدير، فتعثرت بالطاولة فانسكب صحن حساء أختي (فاطي) على قدمها! لسع الحساء الساخن قدم (فاطي) فأخذت تبكي!

غضبت أمّي وصرخت بفاطي:

-«هسّ! البنات لا يبكين أمام الضيوف».

أخذت (فاطي) المسكينة تحاول كتم صوتها. كظمت غيظها في حلقها، وأخذت تنشج وتشهق!

التقط المدير المملحة بيد ترتجف من الغيظ، وكان يريد أن يرشّ على طعامه بعض الملح. كفأ المملحة ليرش، فسقط غطاؤها وانهال كل ما فيها من ملح في صحنه!

فقدت أمّي رشدها من فرط الارتباك فلم تدرِ ماذا تفعل.

كان الشخص الوحيد من الجالسين إلى المائدة، والذي لم يرتكب أخطاء هو أنا. نهضت عن المائدة سالماً والحمد لله.

عندما جيء بالقهوة سألني المدير:

-«في أي صفّ أنت؟».

وحيث كانت أمّي قد أوصتنا وشدّدت في التوصية بأن نبدأ كل حرف نقوله بكلمة (نعم)، فقد أجبت:

-«نعم.. الصّف.. نعم.. الخامس.. نعم».

قهقه المدير وسأل:

-«كم سنة عمركَ؟».

-«نعم.. إحدى عشرة سنة.. نعم».

-«عندما تكبر ماذا ستشتغل؟».

-«نعم.. سأشتغل مؤلّفاً.. نعم».

-«أحسنت!».

بعد ذلك صمتنا جميعاً، وراحت أمّي في هذه الأثناء تشير لي بعينيها وحاجبيها أن أشكر المدير.

وبعد عدة دقائق من الصمت قلت بصوتٍ راعش:

-«نعم.. أشكرك.. نعم..».

ظنّ المدير أنني أسخر منه، فاغتاظ كثيراً دون أن يظهر ذلك.

ولكي يزيل والدي سوء التفاهم سعل عدة مرات كمقدمة للحديث. فقالت أختي (فاطي) معترضة:

-«بابا.. ضع يدكَ أمام فمكَ! لا يجوز أن يسعل المرء أمام الضيوف على هذا النحو».

أحسّت أمّي أن الأمور تكاد تنقلب إلى فضيحة، فارتبكت، ولكي تصحّح سير الأمور قالت لفاطي:

-«اذهبي إلى الخارج!».

فهمت (فاطي) أن أمّي تطلب منها أن تذهب إلى (المرحاض)، فقالت تحتج:

-«إن الحديث عن هذه الأمور أمام الضيوف قلة أدب!».

لم يستطع المدير أن يتحمل المزيد من الإهانات فنهض عابساً مكفهرّ الوجه، وغادر منزلنا دون وداع.

جرى والدي في أثره! وقالت أمي التي كانت تلطم وجهها بيديها الاثنتين:

-«الله يذلّكم! لقد فضحتمونا وسوّدتم وجوهنا!».

عاد والدي، وهو يتمتم متذمّراً:

-«لقد ذهب.. فإلى جهنم! يحسب نفسه ابن آدم! إنّه ما صار رئيساً إلاّ بفضلنا!».

قلت:

-«إذن فلماذا كنتم تقدمون له كل هذا التبجيل؟».

جاد عليّ الوالد بصفعة، وأخذت أمّي (فاطي) إلى المطبخ لتصبّ الفلف في فمها! كي لا نكون فضوليين ولا نتدخّل فيما لا يعنينا في المستقبل!

عزيزتي زينب، كنتُ أريد أن تكون الرسالة أقصر، ولكنها طالت مرة أخرى.

أنتظر أن تأتي إلى اسطنبول في العطلة الصيفية فنتحادث بالتفصيل.

لقد رأيت (أنت) أنقرة على الأقل، ولكن ماذا عنّي: إني لم أخرج من اسطنبول حتى الآن.

أرجو لكِ التوفيق، وأنتظر رسالتكِ.

أحمد تارباري

○ كــن وطنيّــــاً

أنقرة ٢١/فبراير/١٩٦٧

أخي أحمد، كنت قد سألتني هل آتي إليكم في اسطنبول أثناء العطلة الصّيفية أم لا. أقول، إن والدي لا يستطيع الحصول على إجازة، فهو لم يكمل في عمله الجديد سنة حتى الآن. ولكنني سآتي أنا وأمّي إلى اسطنبول حيث نمكث فيها شهراً. وبالطبع فإنّ هذا لم يتقرّر بشكل نهائي حتى الآن، لأن أمّي لا تحبّ السفر دون أبي. كما أن والدي لا يستطيع أن يبقى هنا وحيداً. ومن بين الجميع فإنني الوحيدة التي تحبّ السّفر كثيراً. إن عمتي تعيش في اسطنبول، ولذا فإنّ سفرتنا لن تكلف الكثير. إن شاء الله سنأتي، ونلتقي في اسطنبول معاً.

قبل عدّة أيام ارتكبت شيئاً قبيحاً.. لا أستطيع أن أذكره لكَ... ولا يعلم بهذا الأمر سوى أخي (متين)... فهو دائماً ما يشاركني في ارتكاب الأخطاء.. وأنتَ ثاني شخص يدري بما حدث.

وقد جرت الأمور على النحو التالي:

يوم السبت الماضي كنّا قد ذهبنا إلى بيت جدّي. إنهم يسكنون في بيت يبعد عن بيتنا كثيراً. ومع أن جدّي طاعن في السّنّ إلاّ أنه يسكن إحدى الشقق. لقد بحثوا طويلاً عن بيت أرضي يستأجرونه إلاّ أنهم لم يوفقوا في العثور على واحد: فعندما يصعد جدّي الدّرج، فإنّه يستريح خلاله عدّة مرات حيث يهدّه التعب. وأنه لمن لطف الله أن جدّي لا يسكن في الطابق الثالث أو الرابع أو الخامس، وإلاّ كانت الصحف قد حملت على صفحاتها الأولى أخباراً فاجعة أليمة.. من زمان!.

لم ترافقنا أختي في تلك الزيارة، فقد كانت تزورها ضيفة في بيتنا.. فذهبنا ـ أنا وأبي وأمي ومتين ـ إلى بيت جدّي بالباص.

كانت جدّتي قد هيأت لنا طعاماً طيباً. وبعد الغداء جلس جدّي وأبي ـ كالعادة ـ متقابلين. وأخذا يحتسيان القهوة ويتحادثان. كان يعجبني كثيراً تعاملهما الحميم، والحبّ الذي يكنّه كل منهما للآخر، وتفيض به عيونهما. وكنت استمتع بجلستهما تلك لأن لها

نكهة خاصة.

لم يكن في الغرفة أحد سوانا نحن الثلاثة. كنت أتظاهر بالتسلية بمطالعة الجريدة، ولكنني في الحقيقة كنت أراقبهما خلسة وأستمع لما يقولانه.

كان جدّي يحبّ السياسة حبّاً جمّاً.. فكلما انفرد بوالدي أخذ يحدّثه في السياسة. وخصوصاً بعد الغداء، حين يجلس يشرب القهوة فإن أفضل تسلية لديه هي الحديث في السياسة!

ولكن العيب في هذه الأحاديث هو أن جدّي لا يكاد يرتشف جرعة من القهوة ويقول كلمتين في السياسة حتى يغلبه النعاس ويغفو!.

ويضطر والدي المغلوب على أمره أن يحدث جدّي السابح في ملكوت النوم ساعات طويلة، ويظلّ يشرق ويغرب في الحديث، حتى إذا صمت لحظة صحى جدّي، وأجبره بإصرار على الاستمرار في أحاديثه.

وفي ذلك اليوم، وكما يحدث في كل مرة.. عندما قال والدي بضع جمل في السياسة نام جدّي.. وحين رأى والدي ذلك نهض بهدوء وبطء ليخرج من الغرفة، ولكن جدّي فتح عينيه على الفور وقال:

-«طيب، وبعدئذ ماذا حدث؟».

جلس والدي على الكرسي فوراً. لم يكن يريد أن يفعل ما من شأنه أن يكدّر جدي.. فتح أبي فمه ليستأنف الحديث، ولكن جدّي كان قد غاص في لجة النوم من جديد! وهكذا جلس والدي دون شيء يعمله، وراح يحملق في وجه جدّي، وبعد بضع دقائق، فتح جدّي عينيه مرة أخرى وقال:

-«إلى أين وصلنا؟».

لم يدرِ والدي بماذا يجيب. فقد كان جدّي يعارض كل ما يقوله. وكثيراً ما كانت أحاديثهما تستحيل إلى جدل وبحث. ولذا فقد كان والدي في ذلك اليوم يشعر بحرج شديد.

قال جدّي وهو يغالب النعاس:

-«طيّب، في هذه الحالة ماذا تعتقد أن الألمان سيفعلون؟».

لم يكن الموضوع أصلاً يتعلق بالألمان من قريب أو بعيد! ولذا فقد انفلتت مني ضحكة عالية. حدجني والدي بنظرة صارمة وقال مشيراً بيده، (سكوت!). ثم أدار وجهه ناحية جدّي وقال:

-«لقد تطوّر الألمان كثيراً.. إن الألمان لكي...».

وغفى جدّي مرّة أخرى! وعندما سكت والدي سأل جدّي مرة أخرى: ؟».

-«والأمريكان بما سيردّون عليهم؟».

كدت أختنق وأنا أغالب الضحك. وقد سيطرت على نفسي بمشقة كبيرة، وأخفيت وجهي وراء الجريدة كي لا يروا ضحكي...

أجاب والدي بجدّية بالغة:

-«إن الأمريكان يريدون أن يصيروا أسياد العالم.. وجيش أمريكا...».

مرّة أخرى لم يكتمل حديثه، ونام جدّي من جديد.. ثم أفاق بعد لحظات وسأل:

-«وما رأي (البابا)؟».

-«لقد أصبحت أفكار البابا عتيقة بالية!».

واستمرّ البرنامج على هذا النحو.. وامتدّ الحديث واتّسع شيئاً فشيئاً، ليدور حول تطور الدولة وتقدمها، وسياسة البلد الداخلية والخارجية والصادرات والواردات والزراعة...

كما قالوا بضع جمل في موضوعات ليس من الخير مناقشتها هنا، وكان جدّي على وشك أن يغوص في النوم حين دقّ جرس الباب.. قمت وفتحت الباب، فوجدت رجلاً وقوراً لطيف المظهر. سألني:

-«هل الجدّ في البيت؟».

أخبرت جدّي فقام ومشى إلى الباب. وحين وقعت عيناه على الرجل هشّ له وبشّ وقال مرحّباً:

-«يا للمفاجأة.. لقد زارتنا البركة.. كيف خطرنا على بالك؟».

أعطاني الضيف العزيز علبة مربوطة بشرائط، واتجه مع جدّي نحو قاعة الضيوف.

أخذت العلبة وأعطيتها لجدّتي.. لم يكن لأخي (متين) أثر حتى تلك اللحظة، ولكنه ظهر في الغرفة فجأة وكأن الجنّ قد قذفوه، وهجم على العلبة يأخذها من يد جدّتي.

فتحنا غطاء العلبة، فوجدنا فيها بعض الحلويات.. تلك الحلويات التي أموت فيها.

بعد أن أجهزنا على الحلوى رحت أحاول تذكّر ضيف جدّي. كان وجهه مألوفاً لديّ ولكني لم أتذكر من هو، وأين رأيته. سرت إلى قاعة الضيوف وجلست في ركن ورحت أستمع إلى حديثهم. وفي هذه الأثناء كنت أفكّر وأحاول أن أتذكر أين رأيته.

فجأة تعرفت عليه من صوته. هل تعرف من كان؟ إذا قلت لكَ فسوف تعرفه أنتَ

كذلك. هل تذكر إنه في العام الماضي قد جاء إلى المدرسة في ذكرى الجمهورية كاتب صحفي وأخذ يحدثنا عن الجمهورية؟».

كان حفيده يدرس في الصف الثاني في مدرستنا. ولهذا السبب زار المدرسة في ذلك اليوم وألقى خطبة.

أتذكر كيف وقف مدير المدرسة أمامه وقفة استعداد؟

إن الكلام الذي قاله في ذلك اليوم ما يزال في مسمعي: «يا أبنائي كونوا وطنيّين.. وأحبّوا دولتكم حبّاً جمّاً.. اعرفوا بلدكم جيداً.. وعندما تكبرون طوفوا بأرجاء وطنكم شبراً شبراً... ساعدوا الفقراء والمعدمين.. إن هذا الوطن أمانة تركها الأجداد في أعناقنا، وكما سلّموها لنا وائتمنونا عليها، فإن علينا أن نسلّمها للآخرين أحسن وأعظم مما كانت عليه».

وبينما كان يتحدث كان الصف يغلي بالحماسة، وقد أسرني حديثه فلم أتمالك نفسي وهتفت من مكاني بين تلاميذ الصف: (عاش الوطن!).

وفي ذلك اليوم، حين كان هذا السيد الصحفي ضيفاً على بيت جدّي، وبينما أنا أستمع إلى حديثه مستغرقة في خيالات الماضي وأفكاره، هتفت بصوتٍ عالٍ دون إرادة مني: (عاش الوطن).

قطع جدّي وضيفه حديثهما وأخذا يحملقان بي. وفي غمرة حماستي قلت متلعثمة:

-«أما جئت -حضرتك- إلى مدرستنا في العام الماضي؟».

-«بلى.. إنّ حفيدي يدرس فيها.. وأذكر جيداً أنك قد هتفت بهذا الشعار يومئذ!».

عادا إلى حديثهما.. وعدت للجلوس صامتة في أحد الأركان، وأنا أصغي لما يدور بينهما.

أتدري ماذا حدث بعدئذ؟ لقد كان حديث هذا الرجل اليوم يختلف كثيراً عن خطبته في المدرسة.. وقد تغيّرت فكرتي عنه تغيّراً تامّاً..

كان لهذا المحترم ابن يخدم في الجيش، وقد صدر قرار بنقله إلى الريف. ولكن حيث أنه قد تربّى في العزّ والدلال وحيث كان متزوجاً من أمريكية، فإنّه لا يستطيع العيش في الريف، والآن فإنّ والده دائر من مكان إلى مكان وهو يحاول نقل فلذة كبده إلى المدينة!.

إنك لم تسمع كلامه.. لقد كان ماضياً في انتقاد الأوضاع وكأن الجميع قد تكالبوا عليه وسلبوه حقوقه! كان يقول.

-«إن هذه الدولة لا تصلح للعيش فيها! إنهم هنا لا يرعون شؤون الأفراد!».

كان يريد من جدّي توصية بابنه، وأن يتوسط له عند ذوي الشأن لينتقل إلى المدينة!».

لقد هزّني كلامه وقلب موقفي منه رأساً على عقب. أين ذلك الكلام الكبير الكبير الذي قاله لنا في المدرسة وأين تلك النصائح والتوصيات:

-«أبنائي الأعزاء.. أحبّوا وطنكم.. لا تأسوا على الأرواح وأنتم تقدمونها فداء للوطن.. فأرواحنا لن تذهب هدراً حين تكون في سبيل صمود الدولة».. وغير ذلك من مثل هذا الكلام. واليوم، عندما ضاق ابنه بخدمة الوطن كاد عقله يطير!.

في النهاية لم أستطع السيطرة على نفسي، وألقيت عني كل قيد.. لم يعد يعنيني أن يقولوا عني (عديمة التربية.. فضولية).. دعهم يقولون ما يحلو لهم... قلت بنبرة تنمّ عن السخرية:

-«يا سيدي المحترم... وهل يتميّز ابنك عن الآخرين بأيّ شيء حتى يعفى من الخدمة في الريف؟».

إمّا أنه لم يفهم، وإمّا أنه تظاهر بعدم الفهم.. ضحك ضحكة دافئة وسأل:

-«ماذا قلتِ يا عزيزتي؟».

وقبل أن أفتح فمي بالحديث من جديد، قال لي أبي غاضباً:

-«انهضي أحضري القهوة..».

وبهذا الإجراء تخلص منّي.. وعندما أحضرت القهوة أشار لي والدي بأن أخرج..

كانت أمّي تتهيأ لتغسل الملابس. وبدون أن ألفت انتباه أحد أخذت قطعتين من الصابون وألقيتهما في طشت الماء السّاخن.. انحلّ الصّابون في الماء الساخن وصار ماء الطشت مثل الحليب!

بعد ذلك، رفعت طشت ماء الصابون بصعوبة، وأخذته وسكبته على الدرج...

وعندما أوشكت على الانتهاء من خطّتي رأيت (متين) يقف في أعلى الدّرج وينظر إلى ما أفعل. سألني:

-«أراكِ تغسلين الدّرج!».

قلت:

-«نعم.. أرجو أن لا تقول لأحد، حتى أوضح لك الأمر».

ذهبنا -كلانا- ووقفنا عند الباب حتّى إذا جاء أحد أعلمناه بالأمر.. لأني كنت أريد أن أنتقم من ضيف جدّي، وقد كنت أخشى أن يتورّط أحد آخر بهذا الانتقام.

لم يطل انتظارنا.. إذ سرعان ما استأذن ضيف جدّي بالانصراف. خرج أبي وجدّي يشيعانه، وفي منتصف الطريق توقفا وصافحا الضيف وودّعاه:

«مع السلامة أيها السيد المحترم..».

«لقد شرّفتنا يا سيدي العزيز..».

«أطلب كل ما تحتاج إليه.. نحن حاضرون..».

كان الضيف يمشي باتجاه الباب ويتكلم.. ولكنه لم يجد فرصة ليردّ على مجاملات والدي وجدّي.. إذ عندما وضع رجله على الدرجة الأولى انزلقت قدمه على ماء الصابون.. فطار مثل العصفور في الهواء حين يرفرف بجناحيه.. رقصت يداه ورجلاه في الهواء وهو يحاول جاهداً أن يمسك بيده أي شيء ليحفظ توازنه، ولكن دون جدوى. وهكذا اصطفق بالدرج حتى خلت أن دماغه قد تناثر.

هرع أبي وجدّي إليه، فأمسكا به من تحت إبطيه ورفعاه عن الأرض.. بينما كنت و(متين) يكاد يغشى علينا من الضحك...

كان سائق سيارته قد رأى هذا المنظر وهو ينتظره في الشارع، فركض داخلاً ليساعد سيّده.

خرج ضيف جدّي ويده على وِرْكه، وهو يعرج مثل سيارة انفجر إطارها.

كان (متين) قد استلقى على الأرض من كثرة ما ضحك، أمّا أنا فقد سيطر عليّ الخوف، فكنت أقول لنفسي:

-«طيّب، لو أن المحترم وقع رأسه على حجر، ومات لا سمح الله.. فمن يتحمل إثمه؟».

خلاصة الأمر.. نحمد الله كثيراً على أن الأمور قد انتهت بخير. عندما ذهب الضيف، عدنا إلى قاعة الضيوف، وكان جدّي قد نام من جديد. وحين دخلنا فتح عينيه وسأل أبي:

-«طيّب ... إلى أين وصلنا؟».

أجاب والدي:

-«لم نصل إلى شيء».

قال جدّي:

-«ماذا أظنك كنت تقول؟».

-«لم أقل شيئاً.. بالمناسبة: ماذا عن شغلة ابن ضيفك؟».

ضحك جدّي ضحكة ساخرة وقال:

-«دعك منهم.. إنهم أناس، كلما هبّت ريح اغتنموها».

أعجبني حكم جدّي كثيراً فسألت:

-«جدّي، هل ستوصي أصدقاءك بابنه؟».

-«نعم، يا بنتي، وإلاّ فماذا أفعل؟ إن أمور الإنسان متداخلة بأمور الآخرين، وعليه أن يقضي حوائج الأصدقاء!».

ثم أسند رأسه إلى الكنبة ونام.

خرج والدي من الغرفة وأشار إلينا بأن نخرج وندع الجدّ يستريح.

الحمد لله.. لم يعرف أحد أن وقعة الضيف كانت بفعل أيدينا، وإلاّ كنّا ذقنا (علقة) مطوّلة.

كنت قد كتبت لي من قبل تطلب مني أن أكتب لكَ رسائل مفصلة.. ها أنتَ ترى أن رسائلي أكثر تفصيلاً من رسائلك..

بلّغ سلامي إلى الزملاء والزميلات .. أرجو لكم التوفيق جميعاً.

زينب يالكر

○ الأمّة التي تحبّ البكاء!

اسطنبول ٢٧/فبراير/١٩٦٧

أختي العزيزة زينب، بخصوص القصة التي كتبتها لي عن الكاتب الصحفي، أقول إنني أذكر جيداً تلك المواعظ التي ألقاها علينا.

لقد كان يقول بين كل جملة وجملة: «يا أبنائي.. كونوا عشّاقاً للوطن.. وابذلوا الروح والمال في سبيل الدولة».

في ذلك اليوم طغى علينا الحماس والانفعال حتى سالت الدموع من عيوننا. ولكن عندما يرى الإنسان أعمال هذا الكاتب وأمثاله، يحسّ أنّه قد تسرّع في تصديقهم، وبأنّه قد كان مخدوعاً بهم كثيراً..

عزيزتي زينب، إنكِ لم تكوني مقصّرة حين تأثرت بكلام هذا الشخص.. فهذه عادة أمّتنا وهذا طبعها. فقد غدا البكاء وسرعة التأثر جزءاً لا يتجزّأ من عادات وصفات أمّتنا..

هل أريتِ أمهاتنا وهنّ يقشّرن البصل كيف تنهمر الدموع من أعينهن؟ إن كل امرأة تدّعي بأنها لا تبكي عندما تقشّر البصل تكون كاذبة! فالأمر ليس في أيديهن.. إذ أن

ماء البصل يملك خاصية استدرار الدموع!

ولكن حديث بعض الناس وخطبهم، تملك هذه الخاصية نفسها، إذ بدون أن يفهم الإنسان ما يقولونه يجد نفسه وقد انخرط في البكاء وانهمرت دموعه.

إني أحد الناس المصابين برقة القلب. فما أن أسمع شخصاً يتحدث بانفعال عبر المذياع حتى تروح دموعي تنهال بغزارة... ذات يوم كنتُ أستمع عبر (الراديو) إلى خطبة أحد الخطباء وأنا أذرف الدموع.. انتبه لي والدي فسألني:

-«أحمد.. ماذا يقول هذا الخطيب فيبكيك؟».

لم أستطع من فرط البكاء أن أجيب على السؤال. وفي الحقيقة لم أكن أعرف ما يقوله الخطيب. وكنت أذرف الدمع دون مبرّر. ثم فهمت فيما بعد أن سبب بكائي هو صوت هذا الرجل، الدافيء الآخّاذ. وخصوصاً حين يتلاعب بصوته ويرعشه ليزيد في بكائي.

من زمان.. كان جدّي قد أخذني معه إلى المسجد. وبعد الصلاة صعد الإمام على المنبر وأخذ يتلو دعاء باللغة العربية.

أخذ جدّي يبكي ويشهق، أمّا أنا فقد رحت أبكي متأثراً ببكاء جدّي ونحيبه.

عندما خرجنا من المسجد سألتُ جدّي:

-«جدّي.. هل تجيد اللغة العربية؟».

-«لا».

-«إذن فكيف فهمت ما يقوله؟».

-«إنّي لم أفهم معنى كلامه».

-«إذن فلماذا كنت تبكي؟».

-«ولماذا لا أفعل؟ أما رأيت كيف كان يدعو بحرقة ولوعة؟».

تذكّر جدّي فجأة لوعة الإمام وهو يدعو، فانخرط في البكاء من جديد!.

قلت:

-«جدّي.. نفرض أن الخطيب كان يقول كلاماً مضحكاً فكيف نعرف؟».

حزّ سؤالي في نفس جدّي فأجاب:

-«وهل ذلك ممكن يا ابني يا حبيبي؟ رجال الدين يقولون كلاماً مضحكاً؟».

لم أجرؤ على أن أجادل جدّي أكثر من ذلك. تذكرت مسلك البياع المتجول الذي

يعبر كل يوم في زقاقنا، وهو ينادي على بضاعته بصوت يجرح القلب... أذكر مرّة أنني شهدت بعض النساء يستمعن إليه ينادي على بضاعته وهن يبكين وينتحبن!

كان البياع يصيح: «لدينا بصل جيد... خسّ طازج... ملفوف ممتاز..» والنساء يبكين... طيب، معلوم أن الإنسان لا يبكي تأثراً على الخسّ والبصل والملفوف! ولكن الصوت المؤثر للأخ البياع هو الذي يبكيه!

بالمناسبة، ربما تذكرين أنه كان لدينا في إحدى السنوات مدرس أدب يجيد إلقاء الشعر. إنني أذكره كما لو كان عندنا أمس. وكان شعره المفضل: «غادرت مهموماً وعدت في سرور». كان يقرأ هذا الشعر بلحن خاص، ويمدّ كلمتي (مهموماً) و(سرور) كما يفعل الشحاذون العميان الذين يجلسون بباب المسجد. وكان يلعب صوته ويرعشه هكذا:

ـ«غادرتمهمـ..م..م..مو..ماً..وعدتفيسر..ر..ر..ر..رو..و..ر..»

وكلّما كان المعلم في الصف يقرأ الشعر، كنت أنخرط في البكاء..

ولكن، في أحد الأيام ضحكت حتى أوجعني قلبي! في ذلك اليوم، ما كاد المعلم يشرع في القراءة بصوته الراعش الممطوط قائلاً:

ـ«غادرت مهمـ.. م.. م.. م.. مو.. ماً» حتى ارتفع من بين تلاميذ الصّف صوت يقول بنفس الطريقة المؤثرة:

ـ«الله يعـ.. ع.. ع.. ط.. ي.. ي.. كَ..».

غضب المعلم جدّاً وسأل:

ـ«أيّ قليل أدب هذا؟ ليتكلمْ بنفسه.. وإلاّ..».

نهض (ياشار) من مقعده في مؤخرة الصّف وقال:

ـ«أستاذ.. هذا أنا.. إني متأسف جدّاً.. لم أستطع السيطرة على نفسي».

عفا عنه المعلم واستمرّ يقرأ عجز البيت. وكان وهو يقرأ يعلّمنا ضمناً أين علينا أن نغلظ الصوت، وأين علينا أن نرققه.

كان المعلم يسوق لنا حكايات كثيرة عن خواص الأصوات المختلفة ويشرح لنا ويتوسع في الشرح. وكان يؤمن بأن نبرة الصوت ولحنه يؤثران في حياة الشخص تأثيراً عظيماً..

روى لنا مرّة حكاية عن صاحب أحد المصانع، وهي حكاية طريفة تستحق الاستماع إليها.

كان عمال هذا المصنع غير راضين عن وضعهم فيه، ويشتكون من انتقاص حقوقهم. وفي كل مرّة يتفقون ويذهبون إلى رئيس المصنع في مكتبه، ويأخذون بالمطالبة بحقوقهم.. مرّة باللين واللطف، وأحياناً بالفظاظة والتهديد. ولكن صاحب المصنع ما يكاد يراهم، حتى يبدأ بالحديث إليهم، وقد كسا وجهه بتعبير المظلوم صاحب الحق، وخالط صوته بنبرة المقهور الحزين. وكان حديثه بالغ التأثير، حتى أن العمال كانوا يصرفون النظر عن الموضوع الذي جاءوا من أجله، بل إن بعضهم أحياناً كان يغلبه التأثر فيقعد يبكي وينتحب.

وهكذا ينسون الهدف من زيارتهم لرئيس المصنع، ويخرجون من عنده بأيدٍ خالية وعيون تخالطها الدموع.. وعندما يصيرون خارج غرفته، يسألون بعضهم أخيراً: «ما الذي قاله صاحب المصنع حتى أخذنا بالبكاء؟».

وفي النهاية لا تصل عقولهم إلى كنه ما حدث، فلا يفهمونه. وذات يوم قرّر جماعة من العمال أن يصمدوا أمام حديث المدير ويسيطروا على أنفسهم، فلا يخرجون من مكتبه قبل تحصيل حقوقهم..

في ذلك اليوم، وكالعادة، ما كاد المدير يرى العمال حتى بدأ:

ـ «اخوتي الكادحين.. إني لأعلم أن الحياة أصبحت صعبة، وأنها تقسو عليكم..».

لم يكن في هذا الكلام ما يستوجب البكاء ولكن الغصة مع ذلك أخذت تحتبس في حلق كل منهم!

سأل المدير رئيس مجموعة العمال:

ـ «أنتَ .. كم نفراً تعيل؟».

ـ «خمسة أنفار».

ـ «ياه.. ياه.. مسكين!».

كان يلقي بالكلمات بنبرة يشوبها التأثر البالغ، بحيث أفلت العمال زمام نفوسهم. ولم يستطع رئيس المجموعة، الذي كان يعضّ على شفته باستمرار، أن يضبط نفسه!

سأل المدير رئيس المجموعة:

ـ «هل يذهب أطفالك إلى المدرسة؟».

ـ «نعم، عندي اثنان في المدارس».

ـ «يا حبيبي .. مصيبة.. ذلك أمر لا يطاق.. الله يكون في عونك.. لا بدّ أنك لا تقدر على شراء الفاكهة.. وبالتأكيد فإنكم لا تأكلون اللحم!».

كان يتحدث بتلك النبرةِ الشجيّة التي لو سمعها الحجر لذاب.

-«ومن يدري، فقد لا تستطيع أن تشتري لزوجتك ثوباً في السنة.. وزوجتك وأطفالك مرضى.. أليس كذلك؟».

-«زوجتي ليست مريضة.. والدي هو المريض».

لم يكن المدير يمنح أحداً فرصة للكلام، بل يظل يلقي أحاديثه عليهم دون توقف:

-«بالمناسبة، لو مرضت -لا سمح الله- فما العمل؟ في هذه الأيام يمرض الشخص، لا قدّر الله.. فيحتاج دواء.. ويحتاج طبيباً..».

لاحظ المدير أن العمال في هذه المرّة مصمّمون على الصمود والمقاومة، فسأل وهو يندب مثل امرأة ثكلت طفلها:

-«كيف ستدبّر أمره؟».

سأل رئيس مجموعة العمال متعجباً:

-«من هو الذي (كيف سأدّبر أمره)؟».

-«ابنك..».

-«ابني ليس مريضاً..».

-«قد يمرض في يوم ما..».

لم يعد رئيس مجموعة العمال قادراً على المقاومة، قال:

-«سيدي العزيز.. أرجوك.. استحلفك بالله.. لا تبكِ... كيفما كانت حياتنا، ندبّر شؤونها بطريقة ما... فلا تعكر صفو حياتك من أجلنا.. بالله عليك...».

وخرج مندوب العمال من غرفة صاحب المصنع باكياً. ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يراجع المدير، وإذا احتاجوا أمراً ضرورياً قدّموه للمدير كتابة، إذ لا يجوز أن يتعبوا السيد المدير ويضايقوه!

الآن أدركت لماذا كان المعلم في المدرسة يعلّمنا طريقة الكلام وإلقاء الشعر.. كي نستطيع الاستفادة من هذه (الحرفة) في حينه.

أرجو لكِ التوفيق... وأنتظر رسالتكِ.

أحمد تارباري

○ الدرس الأول في الحياة..

أنقرة ٥/مارس/١٩٦٧

أخي أحمد، قبل دقائق تسلمت من البريد رسالتك المؤرخة في ٢٧ فبراير... لم أذهب اليوم إلى المدرسة، بسبب التطعيم الذي أجروه لنا أمس... عندما جلست في غرفتي أقرأ رسالتك، أخذت أضحك بصوتٍ عالٍ غصباً عني. وكانت أمّي تعبر الممرّ فسمعتني أضحك، ففتحت الباب وقالت:

-«هل جُننتِ يا بنت، حتى تجلسي وحدك تضحكين؟».

أجبت:

-«إنني أقرأ رسالة فلان وهي مضحكة جداً..».

دخلت أميّ إلى غرفتي وهي تسأل:

-«ما هو المكتوب فيها والمضحك إلى هذا الحدّ؟».

قرأت الرسالة من أولها إلى آخرها مرة أخرى لأمّي.. فأخذت تقهقه بدورها...

..كنت منذ مدّة أريد أن أكتب لكَ بعض الأشياء عن (مجلس المدرسة وأولياء الأمور) في مدرستنا. وها أنا اليوم أملك الوقت الكافي لذلك. ومع أن حرارتي مرتفعة قليلاً، إلاّ أن ذلك ليس مهمّاً، ولن يعيقني عن حكاية القصة لك.

قبل أسابيع تمّ في المدرسة تشكيل مجلس يضمّ الهيئة التعليمية في المدرسة وأولياء أمور التلاميذ.. ويجتمع هذا المجلس مرّة كل شهر. وقد جرى انتخاب بعض التلاميذ والتلميذات ليقوموا بواجب الضيافة لأعضاء المجلس أثناء انعقاده، فيقدمون الشاي وبعض الحلوى.. وقد كنت من بين هؤلاء التلاميذ.

عندما اجتمع المجلس أمضيت معظم وقتي ذلك اليوم في الاجتماع. وقد استمعت بعناية واهتمام لكل ما دار فيه.. ولأن الأمر كان ممتعاً ومسلّياً فسوف أقول لكَ كل ما جرى في الاجتماع...

في الحقيقة .. لا ينبغي لي أن أذيع هذه الأسرار، ولكن ماذا أفعل وقد خلقني الله ثرثارة لا تحتفظ بسرّ؟

جاء الآباء والأمهات، فدخلوا قاعة الاجتماع وجلسوا في أماكنهم. بعد ذلك أشار المدير للتلاميذ بأن يخرجوا من القاعة. فكان تصرّفه هذا، هو ما أثار فضولي. قلت في نفسي: «إذن فما الذي يريدون قوله ويحرصون على إخفائه عنّا؟». خرجت من القاعة ووقفت وراء الباب، وحاولت من خلال ثقب الباب أن أراقب كل حركاتهم وسكناتهم واستمع لكل أحاديثهم.

ثم أخذت بعد ذلك أدخل إلى القاعة بشكل مستمرّ بحجة تقديم الشاي للضيوف.

كان هواء القاعة قد أصبح ساخناً فاسداً بشكل مزعج، فقمت بفتح إحدى النوافذ بحجّة تجديد الهواء، ولكي أستطيع الاستماع لأحاديثهم من الخارج بشكل أفضل.

تحدث المدير أولاً. وبدأ حديثه بصوتٍ منخفض فلم أتمكن من سماع كلامه كاملاً وأنا في مكاني في الخارج. ثم رفع صوته أكثر فتحدث عن سلوك الآباء والأمهات وطريقتهم في التربية. واعترض على أن تعامل الآباء والأمهات مع أبنائهم ليس تعاملاً حميماً... فهم لا يربّون الأطفال وإنّما يلقون بكل مطالبهم على كاهل مدير المدرسة.. قال:

-«إن الآباء والأمهات مسؤولون عن أخلاق وسلوك أبنائهم قبل المدرسة، لأن أول درس في الحياة يتلقاه الطفل، إنّما يتلقاه عن والديه.. وبعد ذلك يأتي إلى المعلم». وأخـذ يلقي باللوم على عاتق الآباء والأمهات وأولياء الأمور، ويصفهم بالتقصير، ولذا ارتفعت في القاعة شيئاً فشيئاً الهمهمة وعبارات الاعتراض.

قال المدير في ختام كلمته:

-«إنني كثير القرب من تلاميذي.. كل وقتي يُصرف في تقصّي أحوالهم وأمورهم. ولا أكاد أملك الوقت للاهتمام بأسرتي وحياتي الشخصية... لديّ ولد يدرس في الصف الاول الابتدائي، ومن شدّة انشغالي لا أستطيع أن أمرّ على مدرسته في أحد الأيام.. لقد كتب إليّ مدير مدرسته أكثر من مرّة، يدعوني إلى الحضور والتباحث في شأن الولد، ولكني لم أتمكن من الذهاب.. أمّا أنتم.. فلماذا تغفلون عن الاهتمام بأمور أطفالكم والاستفسار عن أوضاعهم؟ إنّ هذا عيب عظيم.. ويدلّ على أن الآباء والأمهات الذين ليسوا قريبين من أبنائهم لا يزورون مدارسهم!!».

بعد كلمة السيد المدير قام رئيس (مجلس البيت والمدرسة) وصعد المنبر، وطلب من الآباء والأمهات أن يقولوا كل ما لديهم من وجهات نظر حول هذا الموضوع.

استأذن والد أحد التلاميذ بالحديث، ثم شرع بتكلم بصوتٍ غليظ مثل صوت الأجانب:

-«إن إبني ضعيف في الإملاء والإنشاء.. هل من الضروري لشبابنا أن لا يعرفوا قراءة وكتابة لغتهم الأمّ؟ وحتى حديثهم بها ليس صحيحاً!».

سأل المعلم الذي يدرس ابنه:

-«ما الذي جعلك تقول -حضرتك- أنّه لا يفقه شيئاً في الإملاء والإنشاء؟».

-«إنّي أراه، يا أستاذ! إنّ ابني إذا بدأ جملة بالمضارع جعل الماضي في وسطها

وختمها بالمستقبل!».

قال معلم الأدب:

-«أمر كهذا لا يجوز يا أخ! إذا كانت لغته الأجنبية مكسّرة فهذا جائز ... أمّا لغته الأمّ... فلماذا؟».

هاج والد الطفل...

قبل أن ينفعل، كان المرء يستطيع أن يفهم من كلامه بعض شيء.. أمّا الآن فقد أخذ يتكلم بطلاسم:

-«إن ابني هذا عنده ذكاء شديد! التقصير يمكن من المعلم يكون! أنا لا أفهم كلامه.. أمّه لا تفهم... معلمه ضروري أيضاً أن يفهم!.. يكون قليلاً جدّاً... ينبغي أن يأخذ علامات متوسط!!».

قال معلم الأدب:

-«عفواً يا أخ... لم أفهم من كلامك شيئاً..».

ضحك جميع الحاضرين بصوتٍ عالٍ. ولم أتمالك نفسي فضحكت أنا الأخرى. سأل المعلم:

-«إذا كنتما -أنت وأمّ الطفل- لا تفهمان لغته فكيف أفهمها أنا؟».

أجاب والد الطفل:

-«أريد أن أقول هكذا... لغة الطفل كل واحد يفهم. ومعلمه يفهم كذلك!!».

مرة أخرى ضحك الحاضرون من الكلام المخربش الذي يقوله والد الطفل.

سأل المعلم:

-«هل ابن حضرتك يفهم كلامك؟».

-«أبداً!».

وبقوله هذه الكلمة لم يستطع الحاضرون ضبط أنفسهم، وانطلقت قهقهاتهم عالية، وانهالت عبارات الاعتراض والسخرية من كل صوب!

تدخل المدير فقطع الحوار، وأشار بإيقاف البحث في هذا الموضوع.

قام أب آخر من آباء التلاميذ وتكلم.. كانت لديه شكوى بخصوص مستوى تحصيل ولده. قال:

-«ابني يسألني في دروسه ولا أستطيع إجابته.. إذا كنت أريد أن أدرّس ابني

بنفسي، فلماذا وضعته في المدرسة؟».

أجاب المعلم:

ـ«إذا كنت ـحضرتك ـ لا تستطيع مساعدته فما ذنبنا؟ يجب على الطفل أن يتدرّب على دروسه خارج المدرسة».

زعل الوالد وصاح:

ـ«مناهجكم غلط! علّموا الأشياء للأولاد حتى يعرفوها».

ضحك الجميع مرّة أخرى، وقالت إحدى الأمهات تجيب هذا الرجل:

ـ«إن أولادنا لا يتعلمون شيئاً في المدرسة!! إني أسأل ابني عن أي درس من الدروس فلا يعرف!! في زماننا كانت مناهج المدارس أحسن من الآن بكثير.. إن ابني ما زال يجهل الفرق بين الزواحف وذوات الأربع!!».

أشار المدير إلى هؤلاء أيضاً بأن يجلسوا، وقال يردّ عليهم:

ـ«إن مناهج وزارة التربية توضع بواسطة عدد من العلماء والمفكرين، وقد أقرّوا هذه الدروس بعد أن أجروا كل الدراسات اللازمة».

ولكن المرأة لم تكن لتقتنع بهذه السهولة، وقالت:

ـ«إننا نريد من الدولة كل شيء.. إن على تلميذ الصف الخامس أن يكون ملمّاً بهذه الأشياء على الأقل.. فهو ذو ذهن فارغ ولا عمل له سوى الدراسة...».

كان المتحاورون مثل الممثلين الذين يصعدون على خشبة المسرح ويقدمون مسرحية كوميدية وهم يتحدثون في الظاهر بجدّية بالغة!

... هل تذكر تلميذاً كان في صفّنا اسمه (مراد)؟ كان المعلم في كل مرة يقول له:

ـ«إنهض!».

فكان يسأل:

ـ«من؟».

ـ«أنت..».

ـ«تقول أنا يا أستاذ؟».

ـ«نعم، أقول أنت يا حبيبي».

ـ«هل تخاطبني يا أستاذ؟».

وحتّى لو ذكر المعلم اسمه، كان يسأل من جديد:

ـ«هل تقصدني أنا؟».

وكان المعلم ينفعل في النهاية ويصرخ:

ـ«نعم.. أحدّثك أنت..».

فكان (مراد) يلتفت خلفه بكل جدية وبشكل طبيعي، ويقول للتلميذ الجالس وراءه:

ـ«المعلم محتاج إليك..».

وذات مرّة كان يجلس في الصف وخلفه الجدار مباشرة، فالتفت كما يفعل في العادة وقال للجدار:

ـ«انهض وانظر ماذا يريد المعلم منكَ».

...كان والد (مراد) حاضراً في الاجتماع... نهض وقال:

ـ«لو سمحتم لي.. عندي كلمتان أريد قولهما».

قال رئيس المجلس:

ـ«تفضل يا أخ».

استدارت كل الرؤوس نحو والد (مراد)، ولكنه سأل بدون تصنع وبكل سذاجة:

ـ«هل تكلمني حضرتك؟».

قال رئيس المجلس مبتسماً:

ـ«ألم تطلب ـحضرتكـ الإذن بالكلام؟».

ـ«من؟».

ـ«أنت..».

ـ«تقول أنا؟».

ـ«نعم.. سيادتك! تفضّل قل ما تريده».

أشار والد (مراد) إلى صدره، تماماً كما يفعل ابنه، وقال:

ـ«هل تقصدني أنا؟».

هتف واحد من بين الحاضرين قائلاً:

ـ«كلا.. إنّه يقصدني أنا». وأخذ الحاضرون يضحكون من جديد.

شرع والد (مراد) بالحديث:

ـ«في المدرسة امنعوا كرة القدم... إن هؤلاء الأولاد من كثرة ما يلعبون الكرة لا

يفهمون دروسهم وتدريباتهم!».

سأله المدير:

-«ابن حضرتك في أيّ صفّ؟».

-«ابني؟».

-«نعم، ابنك».

فكر والد (مراد) قليلاً ثم أجاب:

-«ابني لا يدرس في هذه المدرسة!».

هبّت عاصفة من الضحك في قاعة الاجتماع. وقلت لمعلمنا خلسة:

-«ابنه اسمه (مراد)، وهو في الصف الرابع».

أحسّ والد (مراد) أن أمره قد أفتضح فانسلّ وجلس في مكانه!. بدأ واحد آخر من أولياء أمور التلاميذ بالحديث كان يتحدث بطريقة ممطوطة وبأسلوب يغلب عليه الطابع الأدبي بحيث لم يتضح قصده إلاّ بصعوبة:

-«في بلادنا.. تعتبر تربية النحل من الأعمال الجيدة والمجدية».

لم يكن لهذا الكلام علاقة بالاجتماع. أمسك الحاضرون عن الضحك بصعوبة، وأخذوا ينتظرون ليروا ما يقصده هذا الأستاذ بخطبته.. واستمرّ الأخ زمناً يتحدث عن فوائد النحل دون أن يلتفت للحاضرين:

-«إن نحلة العسل حشرة صغيرة، تطير بجناحيها الرقيقين إلى أقصى الأمكنة.. فتمتص رحيق الأزهار في الجبال وتصنع منه العسل.. والعسل مفيد جداً للإنسان! يؤكل على الفطور!..

كما يمكن الاستعاضة به عن العشاء والغداء! وشهده سهل الهضم كثيراً. إنّ لدينا نوعين من العسل..».

أخذ الحاضرون ينفثون من الضيق، وارتفعت عبارات الاحتجاج من كل ركن في القاعة. قطع المدير كلام الخطيب وقال:

-«يا سيدي الكريم.. ما دخل النحل بموضوعنا؟».

-«العسل مفيد لنا كثيراً!».

-«جميل.. ولكن ماذا نفعل بالعسل في مدرستنا؟».

-«اسمح لي.. قبل دقائق أنتقد أحد أولياء التلاميذ الدروس غير المجدية والتي لا معنى لها. وأنا رأيي من رأيه.. مثلاً، إيجاد زاوية قدرها ستون درجة ما نفعه لأيّ

تلميذ؟ بدلاً من هذه الخزعبلات، ما العيب في أن تدرّسوهم تربية النحل الذي له كل هذه المنافع؟».

عليكم أن تربّوا لكم في المدرسة بضع خلايا من النحل، حتّى يتمكن الطلاب أن يتعلموا أسلوب العمل عن كثب... يا أستاذ، أنتم غافلون عن النفع العميم لهذا الشغل.. إذا انتشرت تربية النحل في كل مكان فإنّ اقتصاد البلاد سيزدهر! إن تربية النحل أفضل من تربية المواشي بكثير.. فالبقر يحتاج إلى علف ومستخدمين.. ويحتاج إلى ماء، أما النحل فلا يحتاج إلى شيء.. لا مصاريف، ولا مستخدمين، ولا زرائب، ولا تبْن ولا شعير... ويظل يعطي عسلاً طوال العام».

قام شخص آخر وقال:

ـ«يا سيدي المحترم، الحق معك، ولكن لا يجوز أن نربي النحل في المدينة.. ألا ترى كل هذا الدخان المتصاعد من المداخن وكيف أفسد الجوّ وسمّمه؟ فالناس أنفسهم بالكاد يستطيعون العيش، فكيف يتمكنون من تربية النحل؟ النحل يحتاج إلى جوّ نقي وإلى نباتات مزهرة، وفي المدن الملوثة بالقاذورات والدخان، فإن النحل سيعطي الزفت وزيت الكاز بدلاً من العسل!».

ضجّ الحاضرون بالضحك، وارتفعت تعليقاتهم «أحسنت.. أحسنت»!.

قال المتحدث:

ـ«عندي اقتراح آخر.. إن أطفالنا إذا تعلموا تربية الدواجن فإنّ كل هذه المشكلات ستنحلّ..».

خرج المدير عن طوره بعد أن نفذ صبره، فقاطع حديث الرجل غاضباً:

ـ«يا سيدي المحترم، لقد قلنا من قبل إننا لا نستطيع على مسؤوليتنا أن نعلّم الأطفال تربية النحل أو تربية الدواجن أو الأبقار.. نحن موظفون، وننفذ برامج وزارة التربية... هنا مدرسة، وليس كلية زراعة».

قامت سيدة شابة جميلة المظهر أنيقة الثياب وقالت:

ـ«لقد أبعدنا عن الموضوع كثيراً.. إني بوصفي عضواً في المجلس أتقدم باقتراح.. في المدرسة، ماذا فكّرتم بشأن التلاميذ المعوزين؟ ما رأيكم بتنظيم يانصيب خيري.. أو أن نعمل مثل السنة الماضية فنقيم حفلة موسيقية؟».

بعد مداولات مطوّلة تمّ الاتفاق على إحياء سهرة في المدرسة. ثم بدأوا بجمع النقود من الآباء والأمهات لإعداد السهرة!

تحلّق الآباء والأمهات حول معلّمي أبنائهم، وأخذوا يستفسرون عن شؤون دراستهم.

أمّا نحن فقد أخذنا ندور على المدعوّين بوجبة أخرى من الحلوى والمشروبات، لكي نكون قد قمنا بالخدمة على أكمل وجه!

لقد سرّنا وأسعدنا ذلك اليوم بالفعل.. ياليتهم يعقدون مجلس (البيت والمدرسة) كل يوم كي نتسلّى ونلهو!

كانت أمّي قد حضرت الاجتماع بدلاً من أبي. وعندما عدنا إلى البيت من الاجتماع قلت لها:

-«ماما.. لماذا لم تقولي في الاجتماع أي شيء؟».

-«لم يعطوني فرصة.. وقد انتهى وقت الاجتماع من كثرة ما ثرثروا.. أمّا الكلام الذي يستأهل أن يقال، فقد تأجّل للاجتماع القادم!».

سألتها:

-«ماما.. وهل كان لديكِ مثل هذا الكلام تريدين قوله؟».

-«نعم.. كنتُ أريد الاقتراح عليهم أن يعلّموا التلاميذ موضوع الخياطة والطبخ..».

بصعوبة سيطرتُ على نفسي ولم أضحك.. كنتُ أعلم أنني لو ضحكت، لصبّتْ أمّي الفلفل في فمي... بالله عليك، في مدرسة يدرس فيها الأولاد والبنات معاً، هل ينجح تدريس الطبخ بأية حال؟

عزيزي أحمد، إني أعتذر عن رسالتي التي طالت كثيراً. بلّغ سلامي إلى كل الأصدقاء.

الداعية لكَ بالتوفيق.

زينب يالكر

○ الأطفال الخارقون

اسطنبول ١٢/مارس/١٩٦٧

زينب، عندما رحت أقرأ رسالتكِ، كنتُ كمن يشاهد فيلماً سينمائياً.. فقد تجسّدت المدرسة والأشخاص والأحداث أمام عيني تجسّداً كاملاً.

إن والدي لا يشارك أبداً في اجتماعات (مجلس البيت والمدرسة).. لأنه لا يملك الوقت لذلك، إذ يعود من المصنع في أواخر المساء، متعباً منهكاً، زاهداً حتى بالكلام، ناهيك عن المشاركة في نشاطات اجتماعية كهذه.

كما أن أمّي -أعانها الله- تظلّ تكدح في البيت طوال النهار، حتّى أنها لا تملك الوقت

لزيارة الأهل والمعارف.

.. والآن أنقل إليكِ هذا الخبر: (لقد ظهر في أسرتنا أول طفل خارق!). هل فهمتِ قصدي؟

هل تعرفين من هو (طفلنا الخارق)؟ لقد فازت أختي (فاطي) بلقب (طفل خارق)!

يوم الأحد الماضي شارك ستة من (الأطفال غير العاديين) في مسابقة أجريت بينهم. وقد أعلن حكام المسابقة عن تعادل الأطفال الستّة.. أمّا أنا فأعتقد أن (طفلنا) هو الفائز الأول!

إنّ لي اثنين من الأعمام. وكلاهما عنده طفل (خارق).. كما أن لوالدي زميلاً يعمل مهندساً عنده طفل خارق هو الآخر. وعند جيرانه اثنان من الأطفال الخارقين.. فيكون مجموع هؤلاء الأطفال ستّة.. وأنّه لمن لطف الله أن بقية أهل المنطقة لم يدروا بالقضيّة، وإلاّ تجاوز عدد الأطفال الخارقين عشرة آلاف! فكل أسرة عندها واحد على الأقل من الأطفال الخارقين، ويستحيل أن توجد أسرة لا تملك طفلاً خارقاً!

عمّي الكبير عنده عادة لا تفارقه، فهو في كل جلسة مهما كان نوعها، ينحرف بالموضوع ليدور الحديث عن تربية الأطفال وأخلاقهم وسلوكهم، ثم يروح يتحدث عن أطفاله..

وقد بات من المعلوم أنه عندما يزور بيتنا فإنّ كل الحديث من أوله إلى آخره سيكون حول أطفاله!

«أتعرفون ماذا فعل الصغير أول أمس؟ والله إنه شيء لا يصدَّق.. في المساء عندما جئت من المصنع.. ركض الولد وأحضر شبشبي ووضعه أمام قدمي.. يا سلام.. طفل بهذا السّن، كيف يفعل أشياء كهذه؟ أليس شيئاً يدعو للعجب؟! شوفوا الذكاء بالله عليكم! إن هذا الطفل طفل خارق!».

أتدرين كم عمر هذا الطفل الذي يتحدث عمّي عنه كل هذا الحديث؟ إنه أكبر من أختي (فاطي) بسنة.

قبل بضع ليالٍ، عندما كنّا جميعاً في بيتنا، ما كاد عمّي الصّغير يشرع في الحديث عن طفله، حتى نفذ صبر المهندس زميل والدي، فقطع حديث عمّي قائلا:

-«إن أطفال هذه الأيام كلهم هكذا.. طفلتي لم تتمّ الدراسة الابتدائية بعد وهي تتكلم اللغة الفرنسية بكل طلاقة! وهذا علامة على النبوغ!».

ردّ عليه عمّي:

-«إن تعلّم الفرنسية ليس دليلاً على النبوغ..».

ـ«إذن فما هو دليل النبوغ؟ هل تظنّ أن من السّهل على تلميذ الابتدائية أن يتكلم الفرنسية؟».

ـ«على هذا الأساس فإنّ كل أطفال فرنسا نوابغ!».

زعل المهندس وقال منزعجاً:

ـ«يا سيدي الكريم، لماذا تغالط؟ إن مسألة الطفل الفرنسي الذي يتكلم لغته الأمّ، تختلف عن مسألة طفل أجنبي تعلّم اللغة الفرنسية على أثر نبوغه وذكائه».

كان عمّي الكبير جالساً يستمع ويبحث عن فرصة للتحدث عن أطفاله، وها هي الفرصة قد حانت، فتدخل فيما بينهما وقال:

ـ«لقد تفوّق ابني الصغير على أخيه الكبير.. لقد كان الكبير نابغة بشهادة الجميع، ولكنّ الصغير أكثر إعجازاً منه! قبل ليالٍ، عندما عدتُ إلى البيت قالت أمّه: (إني لم أعد قادرة على السيطرة على طفل بهذا الكبر والاحتفاظ به في البيت.. أكلّمه فلا يسمع الكلام.. أقول له لا تلعب في الشارع، فيأخذ يقلّد كلامي مستهزئاً. الآن ذهب إلى الشارع. بالله عليك إذهب وأحضره!).

ذهبت إلى الشارع.. بحثت عنه مدّة حتى وجدته. كان يقطر عرقاً من لعب الكرة... قلت: (ادخل إلى البيت). لم يدخل! ركضت أمسك به فلم أستطع.. كان يجري بسرعة فلم أستطع مجاراته أو اللحاق به... إن طوله لا يبلغ نصف طولي! ولكن هل الإمساك به ممكن؟! نابغة».

قال جارنا:

ـ«إن بنتي على هذه الشاكلة.. نابغة حقيقيّة!».

استأنف عمّي الكبير حديثه قلائلاً:

ـ«كلامك على العين والرأس.. ولكنّي لم أكمل حديثي عن ابني... خلاصة القول: كنتُ أجري وهو يجري.. ولكني في النهاية لم أتمكن من اللحاق به، فصحت به: (قف! إذا أمسكت بك فلن يحصل خير!). رجع. أتدرون ماذا قال؟ قال: (أنتَ ما دخلك بي حتى تصدر إليّ الأوامر؟ هل أنتَ أمّي؟». بالله عليكم، شوفوا المنطق! رحت أضحك من كلامه. إن الكبار لا يقدرون على هذا الكلام!».

كان عمّي يتكلم عن ابنه وهو يضحك، دون أن يرفع بصره عنه لحظة واحدة! ضحك الآخرون من قبيل المجاملة. وقال المهندس لعمّي:

ـ«إن أطفال آخر الزمان هؤلاء، كلهم نوابغ!».

صادق عمّي على كلامه قائلاً:

ـ«نعم.. وابنك ـما شاء الله ـ نابغة».
أخذ المهندس يقهقه حتى امتلأت عيناه بالدموع.
ـ«نعم، فهو بذلك الطول الذي لا يساوي بوصة يقوم بكل أعمال البيت».
قال جارنا الذي لم يكمل حديثه عن بنته:
ـ«إن بنتي من الآن رسّامة عظيمة! لو رأيتم الصور التي ترسمها لتعجبتم».
قالت أمّها تؤيّد كلامه:
ـ«أخشى أن يحسدوها!».
قال عمّي الصغير:
ـ«لا أدري ما هي الحكمة في كون كل أطفال هذه الأيام نوابغ..».
بعد ذلك شرع في الحديث عن ابنه:
ـ«لا تدرون أيّ غناء عذب يغنّيه ابني..».
قال أبي الذي لا يقلّ عنهم هو الآخر:
ـ«إن (فاطي) بنتنا، في هذا العمر الصغير تعتبر (راقصة باليه).. راقصة (تويست).. لا أدري ماذا يسمونها! إنها ترقص رقصاً يتعجب منه الإنسان!».
لم يعجب والدتي هذا الكلام، فقالت:
ـ«إني لا أسمح أبداً بأن تصير بنتي رقّاصة!».
قال أبي ساخراً:
ـ«يا سيدتي، أنتِ لم تدركي الفرق.. الرقّاصة شيء، وراقصة الباليه شيء آخر.. بنتنا ستصير راقصة باليه.. هذا فنّ».
ـ«ليكن مهما يكون.. فإنه لا يجوز أن تتعرّى أمام هذا وذاك... أنا لا أسمح».
هل تدرين كيف كان يبدو لي نقاش هذين الزوجين؟ إنه بالضّبط كأن يقوم طفل عمره عشر سنوات، ويقول لأمّه وأبيه «أريد أن أتزوّج!». فالبنت ما تزال لا تعرف كيف تمشي بطريقة صحيحة، وأمّها وأبوها يتشاجران الآن حول كونها راقصة باليه!
ولكن أحلى الكلام قالته جارة المهندس، فقد قالت (المستورة) دون تمهيد:
ـ«ابني مشى وعمره سنة ونصف!».
دهشت من قولها.. إذا بلغ الطفل من العمر سنة ونصف ولم يمشِ فماذا يجلس يفعل؟.. إن الأطفال مهما يفعلون يقول آباؤهم عنهم نوابغ..

بعد بضع دقائق تحولت الغرفة بفعل صخب وضوضاء الأطفال النوابغ إلى ما يشبه مستشفى للأمراض العقلية!

كان للمهندس ولد اسمه (طارق)، وهو تلميذ في الصف السادس الابتدائي.

قال أبوه:

-«إبننا (طارق) هذا، كان نابغة في صغره.. ولكنّه عندما كبر تلاشى نبوغه!».

سأل عمّي الصغير:

-«بماذا كان نبوغه؟».

بينما راح المهندس يتحدث عن ابنه، كنت أراقب حركات (طارق) وسلوكه. كان المسكين من كثرة ما ضربوه وهو صغير، تبدو على سلوكه وحركاته حالة من البله والبلادة. عندما كانت أمّه تناديه من الخارج: «طارق.. طارق.. طارق»، فإنّه بعد المرة الرابعة أو الخامسة، يطلّ برأسه من النافذة على الخارج، ويجيب بصوتٍ ضعيف:

-«ها.. ماذا؟».

والآن فإن هذا الطفل الذي يملك هذه الصفات والميّزات يشارك في مسابقة (الأطفال الخارقين).

لم يصبر عمّي الكبير، بل شرع على الفور، قائلاً لابنته ذات السنوات الخمس:

-«هيّا.. غنّي أغنية ليروا جمال غنائكِ..».

همهمت البنت وتلفتت يميناً ويساراً وقد انكمشت وغاص رأسها بين كتفيها، واكتسى وجهها بتعبير من الدلال والتمنع، ثم ضغطت وشدّت وخرج من فمها صوت غريب..

قال عمّي مكرراً:

-«هيّا يا ابنتي العزيزة.. استعجلي يا صُغيرتي الحلوة.. أريني فنّك!».

دسّت البنت إصبعها في أنفها وقالت:

-«لا أريد أن أغنّي».

قالت زوجة عمّي:

-«إن أطفالي عندهم استعداد عجيب لتعلّم الموسيقى.. كلاهما يجيد العزف على (البيانو)... لو كان يوجد (بيانو) هنا، لطبّل لكم ابني تطبيلاً جميلاً».

قال عمّي على الفور يصحح كلام زوجته:

-«لعَزَف على الرِّق».

قالت زوجة عمي.

-«لا أدري .. رِقّ .. شِقّ .. أو ما هو .. إنه يضرب على هذه الأشياء .. أنا -نفسي- كنت أضرب على هذه الأشياء أيام طفولتي!».

وعاد الزوج وزوجته يصرّان على بنتهما لتغنّي أغنية، ولكن البنت ظلّت كاتمة الأنفاس، ولا تفعل شيئاً سوى التأرجح في مكانها يميناً ويساراً مثل مبيّض النحاس.

قالت أمها:

-«إذا لم تغنِّ فسوف أعطي فستانك الجميل لابنة الجيران!».

قالت البنت بوقاحة وبلهجة خاطفة:

-«أعْـط.. لا أريد».

وكلما تلطّف لها والداها .. ازدادت لجاجة وعناداً. قال عمّي:

-«إذا غنّيتِ فسوف أعطيكِ شوكلاته».

ثم تناول عمّي -مدّ الله في عمره- إحدى الصواني وأخذ ينقر عليها لحناً، بينما رافقته زوجته بتنقير أصابعها ببعضها. وعندئذ خرج من حنجرة البنت صوت مخنوق. ولكنه لم يكن معلوماً ماذا تقول... وهل كانت تغنّي أم تتذمّر!

وعندما كان ينقطع صوت البنت كانت زوجة عمّي تساعدها، فيجيء زعيق زوجة عمّي مشروخاً يخدش الآذان، ويضيع صوت البنت في ثناياه! أمّا الأغنية التي كانت زوجة عمّي منهكمة بأدائها، فهي من تلك الأغاني المبتذلة السريعة الإيقاع، والتي تدعو للسخرية. خصوصاً عندما كانت زوجة عمّي ترافق اللحن بالاهتزاز والتّمايل:

«يا بنـــات يا حلـــوات　　والعيــون مكحـــلات
قلبي من ضربـة عينك　　يا حبيبـي طقّ ومـــات
....　　.......................»

وبعد أن انتهت الأغنية كان عمّي وزوجته أوّل من بدأ بالتصفيق، فاضطرّ الآخرون، حفظاً لماء الوجه، أن يجاروهما فراحوا يصفّقون!

قالت زوجة عمّي لزوجة المهندس:

-«إن بنتي كانت قد أخذت برْداً .. وصوتها تأثر بذلك، وإلاّ كنتم ترون القيامة التي كانت ستقيمها بغنائها!».

ضحكت زوجة المهندس ضحكة مفتعلة وأجابت:

-«إسمحي لي.. لقد غنّت غناء رائعاً.. وصوتها ممتاز بالفعل.. الله يحفظها من

عين السوء!».

أحسّ عمّي الصغير بالغيرة، فقال لابنه:

-«هيّا.. غنِّ أنتَ الآخر حتى يروا ما هو الغناء!».

مشى الولد حتّى وصل إلى الجدار والتصق به. ثم أخذ وجهه يتجعّد ويتثنّى تعبيرا عن الخجل!

قال عمّي بمزاج معتكر:

-«د.. ولد.. غنّ شيئاً!».

لم يثمر إصراره، فغضب وصاح:

-«د.. يا ابن الكلب.. ألفظ أنفاسك!».

ضرط ابن عمّي وهو يبكي! واختلطت دموع عينيه بمخاط أنفه! وبينما هو ينتحب ويشهق شرع بالغناء. وأخذ أبوه وأمّه يرافقانه.

كان ابن عمّي يقول أول كلمة في البيت ثم يتوقف وقد نسي ما بعدها. فكان عمّي يعطيه أول البيت، وزوجة عمّي تعطيه آخره. وفي الحقيقة فقد كان ابن عمّي يبكي، وعمّي وزوجته يغنّيان!

كان ابن عمي يتوقف في منتصف الغناء، ومثل ابرة الفونوغراف التي توقّفت على الاسطوانة وعلقت في مكانها، يظلّ يعيد ويكرر:

-«قطة أنا.. قطة أنا.. قطة أنا..».

وكان عمّي مثل تاجر أصابته خسارة عظيمة فراح يحاول تعويضها بجشع. صاح بابنه:

-«وبعد (قطة أنا).. ماذا؟».

كررّ ابن عمّي مرة أخرى:

-«قطة أنا.. قطة أنا..».

سألتْ زوجة عمّي بلطف وحنان:

-«يا حبيبي.. ماذا جرى لكَ اليوم؟ كأنك متضايق؟».

ولكن ابن عمّي كان كلما استعجل كلما ضيّع بقية الشعر، وكررّ من جديد:

-«قطة أنا.. قطة أنا.. قطة أنا..».

زمجر عمّي كذئب أصابته رصاصة:

-«فكم قطة عندك يا ابن الكلب؟».

انفجر الضيوف جميعاً بالضحك. أمّا ابن عمّي فما زال يكررّ:

-«قطة أنا.. قطة أنا.. قطة أنا..».

صرخ عمّي بصوتٍ أعلى، بعد أن خرج عن حدود اللياقة، وأخذ وجهه يتصبّب بالعرق:

-«أغلق فمك.. د.. و..».

أخذت زوجة عمّي تناصر ابنها:

-«أنتَ الذي أربكتَ الولد! لقد نسي اسمه من كثرة ما صرخت عليه!».

وكان ابن عمّي ما يزال منهمكاً في (قطة أنا.. قطة أنا)»، ولكنه فجأة -مثل سيارة انطلقت من الوحل بعد ضغطة بنزين- قدح ذهنه فتذكّر التكملة وقال متابعاً:

-«قطة أنا.. تشرب الحليب!».

ولكنه نسي، وعلق في مكانه مرة أخرى:

-«تشرب الحليب.. تشرب الحليب..».

ساعدته زوجة عمّي وقد تذكرت شيئاً من الأغنية، فقالت:

-«مياو..».

أعاد ابن عمّي:

-«مياو..».

ولكنه لم يعرف البقيّة، وظل نظره معلقاً بوجه أمّه، حتى يلتقط أي شيء تقوله.

لم تشأ أمّه أن يلاحظ الآخرون ما تفعله، فحركت شفتيها قائلة دون صوت:

-«تريد من جديد..».

تذكّر ابن عمّي:

-«تريد من جديد.. ماذا تريد؟».

ساعده عمّي:

-«منقّطة».

قال ابن عمّي:

-«إنني قطة منقطة! لا تأكل الخبز ولكن... فأراً.. فأراً...».

وعلق في مكانه مرة أخرى!

وبينما كان الضيوف لا يملكون أنفسهم من الضحك، كان عمّي يفقد السيطرة على أعصابه ويصرخ:

-«انقلع! ابن الحرام، حمار!!!».

غدا وجه زوجة عمّي أحمر قانياً من الخجل، وقالت محتجّة:

-«لماذا تُضايق الولد؟ طيب، نسي. إنه لم يغلط في القرآن».

قالت زوجة المهندس تجامل زوجة عمّي:

-«الولد ارتبك».

وبينما كان الضيوف يصفقون لابن عمّي، كان يمسح دمعه بردنه ويغادر الغرفة خارجاً.

قال جارنا الذي كان قد ادّعى بأنّ ابنته نابغة في الرسم:

-«اذهبي يا حبيبتي، أحضري رسوماتك، وأريها للضيوف».

قالت البنت بدلال وهي تتثنّى:

-«إذا كان يوجد هنا علبة تلوين فسوف أرسم واحدة الآن».

أشار لي والدي:

-«اركض يا ابني.. أحضر علبة تلوينك».

لم أكن أحبّ أبداً أن أعطيها علبة ألواني الغالية عليّ، والتي كان والدي قد أهداها إليّ في رأس السنة. ولكن لم يكن بيدي حيلة. ذهبت وأحضرتها ووضعتها أمام البنت.

جلست البنت وراء طاولة وشرعت في تلوين الأوراق لم أتحمّل رؤية ألواني العزيزة والبنت ماضية في إتلافها وتخريبها.. فابتعدت عنها.

أخذتْ البنت تغطس الفرشاة في الألوان وكأنها تريد أن تنظف العلبة مما فيها، بينما رحت أشدّ على أسناني حتى المتني.

أراد المهندس أن تحافظ الجلسة على حرارتها وإمتاعها، فشرع يحادث ابنته التي كان قد ادّعى بأنها تتكلم الفرنسية بكل طلاقة.

قال للبنت شيئاً، فأجابت: «وي».

ثم قال المهندس شيئاً مرة أخرى.. فأجابت البنت مرة أخرى: «وي!».

كان كلّما قال شيئاً، قالت البنت: «وي». وبعد عدة جمل قال المهندس:

-«يا بنتي .. هذه لا تحتاج إلى (وي)!».

أجابت البنت:

ـ «فماذا إذن؟ نو ؟ هل وصلنا إلى هذه ؟».

ـ «نعم.. عليكِ أن تقولي (نو). فالآن جاء دور (نو)!».

وفي هذه المرّة راحت البنت تجيب على كل سؤال قائلة (نو). حاولت كثيراً أن أحفظ الجمل التي كان المهندس يقولها كي أكتبها لكِ ولكني لم أفهم منها شيئاً!

ومرّة قال المهندس جملة كان معناها: «أغلقي الباب». فقامت البنت وفتحت النافذة. قالت زوجة المهندس:

ـ «أحسنتِ يا بنتي!».

شعر المهندس أن الأمر افتضح، وأنّ الآخرين قد لاحظوا خطأ ابنته وزوجته، فقال لزوجته برفق:

ـ «لا يا عزيزتي... أنتِ مخطئة... لقد قلتُ: أغلقي الباب».

اعترضت زوجة المهندس:

ـ «لا.. ليس هنالك أي غلط.. كله صحيح تماماً.. أنتَ الذي أخطأتَ!».

علق الجدال بين المهندس وزوجته، ولم أفهم في النهاية، هل كان الحق معه أم معها!

قالت زوجة المهندس لزوجها:

ـ «هل تظن نفسكَ الوحيد الذي تعرف الفرنسية؟! إنني قبل أن أتعلم الفرنسية في المدرسة أقمت في باريس أربع أو خمس سنوات!».

قال المهندس ساخراً:

ـ «آ.. في باريس.. عندما كنّا معاً».

ضحكت زوجة المهندس:

ـ «آها.. صحيح تذكرتُ! أردتَ يوماً أن تشتري لي شبشباً فلم تعرف كيف تقوله بالفرنسية واضطررت أن تفهم الرجل بالإشارة، فراح البائع المسكين وأحضر لكَ حقيبة صيد!؟».

قطب المهندس حاجبيه وقال:

ـ «كفاكِ! إنكِ تخلطين الفرنسية بالألمانية! كنّا في ألمانيا عندما أردت أن أشتري لكِ الشبشب... أنا، عندما أتحدث الفرنسية تظل أفواه كل الفرنسيّين مفتوحة!».

ولكي يضع أبي حدّاً للجدال والمماحكة بين هذين الزوجين، ولكي لا تنتهي أمورهما إلى المحكمة الشرعية فالطلاق، لا سمح الله، فقد عاد بالموضوع إلى حديث الأطفال

النابغين، فسأل البنت التي كانت قد صبغت يديها ووجهها وملابسها بالألوان:

ـ«أما انتهيتِ يا ابنتي؟».

ـ«لماذا .. عموّ ؟».

عاد الضّيوف والتفتوا إلى البنت، بعد أن كانوا قد انصرفوا بأسماعهم وأذهانهم إلى ما يدور بين المهندس وزوجته، ونسوا أن هنالك بنتاً نابغة تقدّم امتحاناً في الرسم!

صرخت أم البنت بعد أن رأت الرسامة النابغة:

ـ«آ .. وا .. بنت، الله يذلّك! لماذا وسّختِ ثيابك؟ لقد اشتريتها لكِ أمس!».

لم تعر البنت التفاتاً إلى كلام أمّها، بل رفعت الورقة التي كانت قد أغرقتها بالألوان والخرابيش دون أن ترسم شيئاً، وأخذت تريها للضّيوف.

لم يفهم أحد شيئاً من هذه اللوحة الخطيرة. ولكن البنت رفعت الورقة عالياً وبغرور زائد، وأخذت تعرضها وكأنها لوحة تفوق لوحات (فانجوخ) و(رامبرانت) و(بيكاسو).

سبق المهندس غيره في الكلام:

ـ«ما شاء الله.. ما شاء الله.. لقد رسمتِ بشكل باهر، يا بنتي.. سلمتْ يداكِ....».

والعجيب أن والدي قد أثنى على البنت أكثر مما فعل المهندس. ولكن الآخرين سيطروا على أنفسهم بصعوبة كي لا يضحكوا.

... ثم جاء دور (فاطي) أختي، التي كان عليها أن تعرض فنّها، والتي تفوقت على الجميع بحقّ، وجاءت بالعجب!

قال والدي:

ـ«إن بنتي ستصير في المستقبل راقصة (باليه) مشهورة.. يا الله يا بنتي، هاتي واحدة من رقصات (التويست)، حتى يتفرج أعمامكِ وخالاتكِ وينبسطوا!».

انكمشت (فاطي) في ركن من الغرفة وأخذت تقضم أظافرها. قال والدي بصوتٍ أعلى:

ـ«يا الله يا بنتي.. تعالي إلى الوسط».

ولكي يشجّع (فاطي) أخذ والدي يرقص على الكرسي الذي كان يجلس عليه. وبعده أخذ المهندس يتمايل، ومن ورائه إنهمكت زوجته بهزّ وسطها!.

قال والدي وهو يفرقع بأصابعه:

ـ«هيّا يا ابنتي، أقفزي بينهم وأريهم فنونك..».

كانت (فاطي) مثل لصٍ ألقي القبض عليه، حانية عنقها إلى جهة، وفي كل لحظة

تزداد التصاقا بالجدار . وعندما دفعتها أمّي إلى وسط الغرفة لتبدأ بالرقص، اتضحت الأمور، وعرفنا لماذا ترفض البنت الحركة من مكانها.

صرخت أمّي:

-«آ .. وا .. مصيبة .. خرّبتْ!».

أخذت أمّي (فاطي) وأخذتها إلى الحمام تغسلها!

قال والدي الذي أخذ يتصبّب عرقاً:

-«إن هذه البنت لا تفعل هذه الأمور أبداً... لا أدري كيف عملتها!».

قالت زوجة المهندس بنبرة خاصّة:

-«ما تزال طفلة! الأطفال كلهم يفعلون هذه الفنون! حتماً من خجلها».

.. نعم يا زينب، لقد انتهت مسابقة الأطفال الخارقين التي لم يسبق لها مثيل على هذا النحو .. هل تعتقدين أن (فاطي) لم تكن بطلة هذا السباق؟ ذلك هو رأيي. بعد أن ذهب الضيوف، قلت لوالدي:

-«لقد قرأت جملة في الكتاب ولم أفهم معناها. هل يمكن أن تساعدني، حضرتك؟».

قال أبي بشيء من العبوس:

-«أحضرها وأقرأها لأرى».

فتحت الكتاب وقرأت له:

-«كلام الحمار... وتحميل الأثقال للإنسان أمران غير طبيعيّيْن، ولكن بعض الناس يتعبون أنفسهم سنوات طويلة وهم يحثّون الحمار على الكلام والقراءة».

قاطع والدي كلامي بشيء من الضّيق قائلاً:

-«إن هذه الخزعبلات لا تحتاج إلى تفسير .. فمن المعلوم أن كل شيء يكون جيداً إذا كان على طبيعته، ولا يصير أن تتغيّر طبيعة الأشياء بالتعب وبذل الجهد..».

قلت دون أن أتلعثم:

-«إذن فلماذا أردتم من فاطي أن تكون مثل الكبار؟».

استاء والدي جدّاً، ولكنه لم يقل شيئاً، بل دخل غرفته لينام!

عزيزتي زينب.. أعتقد أن مسابقة الأطفال الخارقين التي أجريناها لا تقلّ عن اجتماع (مجلس البيت والمدرسة) الذي أجريتموه. وإن لم تكن أجمل منه، فهي ليست أسوأ. فقد سرّتنا تلك الليلة وأمتعتنا...

أنتظر رسالتكِ.

أحمد تارباري

○ يا حبيبي .. يا حياتي ..!

أنقرة ٢٥ /مارس/ ١٩٦٧

أحمد، أمس وصلت رسالتكَ .. أشكركَ على أنكَ لم تنسني رغم كل مشاغلكَ..

أمس كانت المدرسة معطلة، فبقيت في البيت. وقد أصابني الملل من قلة الشغل والوحدة.

حينما سلّمني ساعي البريد رسالتك، دخلت غرفتي بشوق ولهفة وشرعت في قراءة الرسالة.. وقد أضحكتني حتى دمعت عيناي.. أظنّ هذه الحكاية التي رويتها لي تتعلق بنا، بل لعلّها تتكرر في داخل كل بيت.

في بيتنا، كانوا في البداية يطلقون لقب (النابغة) على أختي! ولكنهم بعد مدّة فقدوا أملهم فيها، فأخذوا يهتمون بي وبأخي (متين). ولكن سرعان ما اتضح أمرنا فاقتنعوا بأن أيّاً منّا لن يكون نابغة فتركونا وشأننا.

إنني أذكر جيداً تلك الأيام التي أرادوا فيها أن يصنعوا من أختي نابغة... كنتُ يومئذ ما أزال دون سنّ المدرسة.. عندما كان أبي يعود إلى البيت كان يضع الكتب والأقلام أمامه ويأخذ في تدريس أختي اللغة الفرنسية.

أراد يوماً أن يعلّمها قصيدة فرنسية... أذكر من تلك القصيدة:

«لو برزرا سون شين
جم مون شين، أون بون كاردين
كي مانـــــــز يو، ترا فاي بي ين».

لم أكن أعرف معنى القصيدة، ولكنني من كثرة ما سمعتها، حفظتها عن ظهر قلب.

ومن أجل أن تحفظها أختي، ظلّ أبي يكررها مرات ومرات حتى أنني لم أحفظها أنا وحسب، بل إنّ أمّي، والشغّالة الأمّية، صارتا تقرآنها عن ظهر قلب دون غلطة واحدة.

ولكن أختي لم تحفظ منها بيتاً واحداً.. وكانت كأنها تريد أن تتعلم اللغة الصّينيّة، تغضّن وجهها وتملؤه بالتجاعيد، وتروح تخرج من فمها أصواتاً عجيبة غريبة (شين، تانغ، بانغ!؟).

ومهما كان والدي يهدّدها ويخوّفها، أو يدلّلها ويلاطفها... أو يضربها.. أو يكافئها بالهدايا والألعاب... فإنّ كل ذلك كان دون نتيجة.

كان لأبي صديق دارس في أوروبا وأمريكا وحاصل على شهادة في علم النفس وتربية الأطفال من جامعاتها المعروفة. قال هذا الصديق لأبي ذات يوم:

-«إن تعلّم كل شيء يجب أن يتوفّر له استعداد خاص. لا ينبغي لكَ أن تجبر البنت

بالقوة على أن تتقبّل كلامك... عندما كنت في فرنسا رأيت العديد من الناس الذين قضوا فيها سنوات طوالاً، ورغم ذلك لم يتمكنوا من تكلّم الفرنسية بشكل جيد. ولكنهم كانوا يملكون استعداداً عجيباً لتعليم لغتهم الخاصة للآخرين.. وقد تكون بنتك من هذا الصنف!

إن كل طفل يمتلك استعداداً لعمل ما، ويجب البحث عن النواة الأصليّة لاستعدادات الطفل واكتشافها، وتنميتها».

استمع والدي لهذا الكلام المنطقي من أستاذ علم النفس، فسلّم بالأمر، وأقلع عن تعليم أختي اللغة الفرنسية.. ثم انخرط في التنقيب عن النواة الأصلية لاستعدادات أختي.

في هذه المرة جلب لأختي معلمة موسيقى، أخذت تعلمها العزف على (الكمان).. ولكن النواة الأصليّة لاستعدادات أختي لم تظهر في دروس (الكمان) أيضاً.

قالت المعلمة لأختي:

-«ما شاء الله! إن لهذه البنت استعداداً جيداً! إنها بعد كلّ هذا التعب ما زالت لا تميّز بين (لا) و(سي)، كما أنها لا تميّز صوت (الكمان) من صرير الباب!».

في الحقيقة، لقد كان الحق مع المعلمة! فأختي هكذا، فلو وقع في المطبخ صحن أو قدح مثلاً وانكسر، لظنّت أن أحداً يقرع باب الدار، وقامت تفتحه! وعندما كانت تلميذة في الابتدائية كانت معلمتها في المدرسة تقول لها:

-«يا ابنتي يا حبيبتي، عندما ينشد التلاميذ، أنتِ لا تنشدي، لأنك تغلّطينهم».

عندما قنط الوالد من تعليمها الموسيقى، استقرّ الرأي على تعليمها الرسم.. فأضعف الإيمان أن تنبغ في الرسم.

ولكنها لم تفلح في ذلك أيضاً. فأخذوا يعلّمونها الرقص. وعلى الرغم من أنها لم تحرز تقدماً في الرقص، إلاّ أنه قد نفعها، حيث لم تكن قبل ذلك تعرف كيف تمشي. فعندما كانت تمشي في البيت متأرجحة يميناً ويساراً كانت تترنّح وتتعثّر مثل السكارى الثّملين! ولكنها بعد أن قضت مدّة في التدريب على الرقص، فتح الله عليها وتعلّمت المشي!

بعد مدّة من الجهد والتعب والمحاولة أدرك والدي ووالدتي أن أختي لا تملك استعداداً لأيّ عمل مهما كان نوعه، وأنهم لا يستطيعون أن يصنعوا منها (نابغة)، ولهذا فقد (أعتقوها) وقالوا: «دعوها تقرأ دروسها».

ولكنّ أختي لم تفلح في المدرسة كذلك وفاحت رائحتها. فقد كانت تقضي في كل

صف سنتين أو ثلاثاً، حتى إذا بلغت الصف الثاني الاعدادي، اضطرت للإقلاع عن الدراسة!

وعندما رأت أمّي أن الأمور قد تَلِفَتْ قالت:

ـ «هكذا يتّضح أنّ بنتي لديها استعداد في إدارة شؤون البيت».

ولكنّ هذه التجربة أيضاً لم تستمرّ طويلاً، فقد خبّصت أختي في أعمال البيت، وكسرت من الأطباق والأواني الشيء الكثير، حتى حظر عليها دخول المطبخ! كانت إذا قضت في المطبخ خمس دقائق، لاحتاجت أمّي بعد ذلك ساعتين وهي تبحث عن أواني المطبخ وتعيدها إلى مكانها!

لم يطق أبي تحمل الوضع. واستقرّ رأيه على أن أختي تعاني من خلل في قدرتها العقلية!

أخذها إلى طبيب نفساني! ولكن ذلك الطبيب ـ رحم الله والده ـ لم يسلّم بكلام والدي وقال له:

ـ «أنتم المقصّرون، وأنتم السبب في كل ما حصل. لقد أوصلتموها إلى هذه الحالة بسبب سعيكم في اكتشاف استعداداتها... دعكم منها.. اتركوها وشأنها بعض الوقت، وسوف تعود إلى حالتها الطبيعية من ذات نفسها».

ومنذ ذلك اليوم، تحرّرت أختي، وفي المقابل وقعتُ أنا في الشرك! لعليّ أصير (نابغة) دون أي مساعدة أو عون!

إن أمّي وأبي اللذين تعبا كثيراً وصرفا كثيراً في سبيل كشف استعدادات أختي، أرادا تعويض الخسارة معي ومع أخي (متين). ولو صرفا علينا ثلث ذلك الجهد والمال اللذين أغدقاهما على أختي، لكنّا اليوم من النوابغ.

فقد كان (متين) مغرماً بالأعمال الحِرَفية والفنيّة. ولم يبقَ شيء في البيت من الراديو إلى الغسّالة إلى ماكينة حلاقة والدي إلى طنجرة البخار.. الاّ فتحه (متين) وأغلقه ثلاث أو أربع مرات. وفي الحقيقة فقد خرّبها جميعاً وأوقفها عن العمل!

استخرج زنبرك ساعة الحائط وألقاه في طنجرة البخار، وثبت برغي ماكينة الخياطة بالراديو... ومع كل هذه الأعمال ظلّ أبي يردّد: «إن متين ولد بليد لا يصلح لأيّ حرفة!». بالله عليكَ، هل هنالك حرفة أرقى مما يحاوله (متين)؟

كان زميل لوالدي لا يملّ من القول:

ـ «إن عند جيراننا بنتاً نابغة.. هذه البنت المهذبة تجلس إلى مائدة الطعام وتأكل مثل الكبار! وتتكلّم مثل الكبار أيضاً».

استفزّني هذا الكلام، حتى وددت لو أستطيع إيقاف هذا الرجل عند حدّه.. إنه لا يملك ذرّة من خجل وهو يلقي هذه الأكاذيب في وجوهنا. إننا -كلّنا- نعرف ابنة (نورتن) هذه حقّ المعرفة. فقد كانت أمّها كلما خرجت هي وزوجها من البيت، تحضر هذه البنت إلى بيتنا وتضعها في رعاية أمّي. كما كانت أمّي كذلك كلّما أرادت الخروج إلى السوق تأخذني أنا ومتين وتضعنا في بيتهم، كي لا يلعب أخي (متين) بالثلاجة والراديو، ويخرّب أكثر مما خرّب.

قبل بضعة أيام خرجت أمّي من البيت وأرسلتنا إلى بيت عائلة (نورتن).

تجمعّنا كلّنا في غرفة واحدة، وأخذت أقرأ لمتين ونورتن من كتاب للأطفال لأسلّيهما.

قامت (نورتن) في منتصف القصّة وخرجت بحجّة شرب الماء. وعندما عادت كانت لا تملك نفسها من شدّة الضحك. سألتها:

-«ماذا يا نورتن؟ لما تضحكين؟».

أجابت:

-«أمّي وأبي يتشاجران... تعالوا نتفرّج».

-«وكيف عرفتِ؟».

-«ذهبتُ لأشرب فمررت من أمام حجرتهما. وعندما رأتني أمّي قالت لأبي بصوتٍ عالٍ: (يا حبيبي.. يا حياتي). وأجاب أبي: (ماذا يا روحي.. يا حياتي؟)..».

كنت أعرف معاني هذه الكلمات جيداً، فسألتها:

-«إن هذه الكلمات جيّدة وجميلة... أين الشجار؟».

ضحكت (نورتن) بصوتٍ عالٍ، وقالت:

-«حلو! أنتما لا تعرفان.. إن أمّي وأبي -من أجل أن لا أنشأ بنتاً سيّئة التربية- لا يتخاطبان أمامي بالكلام البذيء أبداً.. ويكون كلامهما دائماً في غاية الحلاوة. ولكن حين لا يكون في البيت صغار يعلو صوت شجارهما إلى السماء... ليت الصغار يظلّون في البيت في إجازة! عندئذ ينتهي الشجار ونستريح!».

هزّتني كلمة (شجار) عندما سمعتها. نهضتُ من مكاني وقلت:

-«علينا أن نعود إلى البيت.. فأمّي وأبي قادمان الآن».

ومشينا لنذهب إلى بيتنا.. ولكنّنا حين وصلنا إلى باب حجرة الضيوف رأينا منظراً يثير الضحك. ولو كنّا نعلم أننا سنواجه شيئاً كهذا لما اقتربنا من الحجرة. ولكن.. سبق

السيف العذل، ولم يعد ثمة مجال للتراجع.

كانت أقداح الشاي مبعثرة على الأرض، وشعر أمّ (نورتن) منكوش، ووجه أبيها يسيل منه الدّم!

ما أن رآنا أبو (نورتن) حتى قال لزوجته:

-«اجمعي الأقداح عن الأرض يا عزيزتي!».

أجابت الأمّ التي ارتبكت حين رأتنا:

-«حاضر، يا عزيزي!».

كنّا قد فهمنا الموضوع، فلم نتمالك أنفسنا وانخرطنا في الضحك بصوتٍ عالٍ... عصبت أم (نورتن) كثيراً وصرخت:

-«يا بنت.. كم مرّة قلت لكِ لا تدخلي دون أن تقرعي الباب؟».

ثم التفتتْ إلى زوجها وقالت:

-«هل أعمل لكَ قهوة يا حبيبي؟».

أجاب أبو (نورتن):

-«إعملي يا كبدي! ولتكن (سكّر قليل) يا حبيبتي!».

كانت فردة حذاء أمّ (نورتن) واقعة في حضن زوجها. قال أبو (نورتن) الذي كان ما يزال ممسكاً رأسه بيديه:

-«لا أدري كيف انزلقت قدمي ووقعت على الأرض!».

ضحكنا من جديد. وحيث لم يكن من الخير أن نتكلّم، عدنا إلى بيتنا راكضين.. وشرعت أنا بكتابة هذه الرسالة لك..

إنّي أسمع صوت أبي يسعل في الخارج.. كأنّي به هو الآخر يريد أن يقول لأمّي «يا حياتي.. يا روحي!».

عزيزي أحمد.. أستودعك الله.. سأكتب لكَ في الأسبوع القادم رسالة أطول إن شاء الله.

الداعية لكَ.

زينب يالكر

○ أمـــام الضّيـوف..

اسطنبول ٣٠/مارس/١٩٦٧

صديقتي العزيزة زينب، قرأت رسالتكِ التي تتحدثين فيها عن التحاسد بين الأسر الذي يبلغ بكل منها حدّ محاولة إثبات أن أطفالها أذكى من أطفال غيرها، والذي يقف في الغالب، وراء معظم أحقادها على بعضها، ومخاصماتها ومصالحاتها.

.. بعد أن قرأت رسالتكِ.. حمدت الله ألف مرّة على أنّنا لا نسكن بالأجرة، وعلى الرغم من أن البيت الذي نسكنه صغير جداً، إلاّ أنه ملك لنا نتصرّف به، ولذا، فإنّنا أقلّ تعرضاً لمثل ما تصادفونه مع الجيران.

ومهما يكن فإنّ مثل هذه الأمور تقع مع الجميع، وقد حمل لنا الأسبوع الماضي حادثة من هذا القبيل، وهي في غاية الطرافة!

كان أبي قد دعا مديره في العمل ليتغدّى عندنا في عطلة نهاية الأسبوع. وقد أخبر أمّي بذلك يوم الأربعاء.

أدهشنا الموضوع جميعاً.. ليس لأن مدير المصنع الذي يعمل فيه أبي شخص مهمّ ومعروف، بل لأنّ أبي لا يذكره بخير أبداً فكلّما حضرت سيرة هذا الرجل احمّر وجه أبي من الغضب، وراح يكيل له الشتائم والسّباب البذيء!».

قلتُ لأمّي: «لماذا يأتي هذا الرجل إلى بيتنا؟».

غضبت أمّي وأجابت:

-«يا مجنون.. يجب أن تفخر بأنّ مدير المصنع يأتي إلى بيتنا!».

-«ولكنّ أبي يكرهه جداً».

-«صحيح .. ولكنه يحبّ أباك».

-«لماذا؟».

-«عجيب ... أما دريت بأن أباكَ قد أصبح ممثلاً للعمّال في المصنع؟».

كنتُ قد عرفت هذا الموضوع قبل شهر. قلتُ في نفسي:

-«إذن هكذا! مدير المصنع قادم إلى بيْتِنا لهذا السبب؟!».

لم أرغب في رؤية هذا المدير الذي لم تسبق لي رؤيته، لكثرة ما كان أبي يصفه بالسوء. كنتُ أتخيّله على هيئة شيطان وحيوان مفترس.

خلقت زيارة المدير المنتظرة وضعاً غير عادي في بيتنا. أحضر أبي دهّاناً قام بصبغ الأبواب والنوافذ جميعها. كما قامت أمي بتلميع البيت كله ابتداء من الغرف حتى باب الدار.

قلتُ :

ـ «بابا .. ما دمتَ تكره هذا المدير ، فلماذا تكلف نفسكَ من أجله كل هذا العناء؟» .

غضب والدي حتّى أنه بدلاً من أن يضع الفرشاة في علبة الدهان سحبها على الحائط الابيض وأجاب :

ـ «إني لا أطيق أن يأتي إلى بيتنا .. لو زارنا عزرائيل لكان أفضل منه .. ولكن ماذا أفعل؟ أنا مجبور !» .

ذهبت أمّي إلى الجيران واستعارت كؤوساً وأطباقاً وغطاء سفرة نظيف وما شابه ذلك !

وقد أخذت في إعداد أصناف الطعام قبل الموعد بيوم .. أمّا والدي الذي اعتاد أن ينهض من فراشه متأخراً ، فقد خرج من حجرة نومه ذلك اليوم قبل شروق الشمس .

سألت متعجباً :

ـ «بابا .. هل سيأتي الضيف مبكراً إلى هذا الحدّ؟» .

قال وهو يهمهم :

ـ «إنّي لم أستيقظ مبكراً من أجل الضيف !» .

لم يكن أبي معتاداً على مساعدة أمّي في أعمال المنزل ، ولكنه في ذلك اليوم لم يتردّد في الدخول إلى المطبخ والانهماك في العمل ! وكان بين الحين والآخر يقوم ويطل من النافذة على الشارع ! وإلى أن حان وقت الظهيرة كان أبي قد نفذ صبره ، وصار لا يفعل شيئاً سوى أن يزرع الغرفة ذاهباً آتياً ، ويطلّ من النافذة بين وقت وآخر يستطلع الشارع !. وكان يحدّث نفسه :

ـ «لا أدري أين تأخّر هذا المحترم ! أين راح؟» .

هيّأت أمّي المائدة وأخذت تنتظر تشريف جناب المدير ، كي تبدأ بتوزيع الصحون والاطباق على المائدة !

فجأة سمعنا صوت نفير سيارة ينطلق في الشارع . هتف أبي :

ـ «هيّا يا أولاد ، طيروا لتفتحوا باب الدار .. أظنّه جاء .. لماذا أنتم واقفون؟!» .

كما أطلّ هو بنفسه من النافذة ينظر إلى الشارع ، وتدلّى حتى كاد يقع . أمّا أمّي التي اضطربت وارتبكت ، فقد هرولت تهبط الدرج باتجاه الباب ، فتبعها أبي مسرعاً حتى كاد يهوي عن الدرج !.

وقفت أرقب الشارع من النافذة . كانت سيارة حمراء اللون تقف أمام بيتنا . وصل أبي

إلى باب الدار وانحنى، وبالغ في الانحناء. قلت لنفسي:

-«لا بدّ أنه سيلتقط حجراً عن الأرض ويسحق به رأس المدير!».

ولكن، كلاّ.. ربّما كان يقدّم التحيات، مثل لعبة تعمل بنابض، شُدَّ زنبركها ثم أطْلق فأخذت تنحني وتعتدل!. وكان لا يكفّ في أثناء ذلك عن التملّق والمجاملة:

-«تفضلوا.. أهلاً وسهلاً.. زارتنا البركة!».

صعدوا الدرج وما زال والدي يثني على المدير ويمتدحه ويعدد مناقبه ويفخر بتشريفه لنا بالزيارة.

مشَيت إلى الممّر. كان والدي يأخذ معطف المدير عن كتفيه، تماماً كما يفعل الخدم مع المدراء العاميّن، بحركات يشوبها التملّق والتذلّل!

علّق والدي معطف المدير على المشجب، ومشى يتبعه إلى حجرة الاستقبال.

كنتُ على العكس من والدي الذي كان يشبّه المدير بالشّيطان والدبّ والخنزير. فقد رأيته رجلاً مهذّباً وذا خلق وتربية. ولكن أكثر ما أثار دهشتي هو لماذا كان أبي لا يكفّ عن شتم الرجل في غيابه، ولماذا ينحني الآن مثل الخدم بين يديه!

دخلتْ أمّي الحجرة وسلّمت على المدير. صافحتهُ أنا الآخر. فقال أبي:

-«يا بنيّ.. قبّل يد السيد المدير!».

انجبرت وقبّلتُ يده. استأذنتْ أمّي وانصرفت لتحضير الغداء. وجلس أبي قبالة المدير، ثم أخذ يتبادلان الحديث على مهل.

قبعت في ركن من الحجرة مندهشاً، وأنا لا أفهم شيئاً ممّا يدور!

قبل يومين كانت أمّي قد ألقت على أختي (فاطي) درساً في أصول السلوك أمام الضيوف.. لم تكن هذه الدروس تُلقى على (فاطي) إلاّ حينما أكون قريباً منها، لكي أسمع. كانت (فاطي) تكرّر كل ما تقوله أمّي لها، بينما ظلّت أمّي تراقبني خلسةً لترى إن كنتُ أستمع أم لا.

قالت أمّي:

-«يا ابنتي الشاطرة.. إياكِ من الشيطنة أمام الضّيف!! لا تضعي إصبعكِ في أنفكِ، أو تخرجي لسانكِ من فمكِ! إذا وقع شيء يؤكل على الأرض من يدكِ، فلا تلتقطينه وتضعيه في فمكِ!

طيب؟.. وتذكّري بوجه خاص أن لا تقولي أمام الضيف (ها)..».

قطعتْ (فاطي) كلام أمّي فجأة وسألتها:

-«ماما .. إذن ماذا أقول أمام الضيف؟».

-«قولي (نعم) بدلاً من (ها) ..».

نظرت أمّي إليّ من جديد ثم سألتْ دفعة واحدة:

-«يا بنيّ .. هل فهمت أنت الآخر؟ على الإنسان أمام الضيوف أن يبدأ كل جملة بنعم ويختمها بنعم».

كان أبي جالساً يحادث السيد المدير .. جمعتُ كل قواي في أذنيّ لأرى كيف يبدأ أبي حديثه بنعم ويختمه بنعم.. ولكني لم أتمكن من التقاط شيء من حديثهما رغم اجتهادي الشديد في ذلك..

هنا دخلتْ أمّي إلى الغرفةِ وقالت:

-«تفضّلوا .. الغداء جاهز».

أجاب المدير بابتسامة خاصة:

-«شكراً يا سيدتي.. لم أكن لأرضى لكم التّعبْ.. إني لا أستطيع البقاء هنا للغداء!».

أصيبتْ أمّي بإحباط شديد، ولولا استنادها على الباب لوقعت.

لقد تعبت المسكينة وأرهقت نفسها يومين متتاليين، والآن يتفضّل السّيد المدير ويقول «لا أستطيع البقاء للغداء!».

ولكن أبي لم يستسلم. وفي النهاية أفلح بالإصرار والإلحاح من جرّ المدير للجلوس إلى المائدة.

قال لي الوالد ونحن جالسون إلى المائدة:

-«صبّ الماء في الكؤوس..».

كنتُ واقعاً تحت تأثير كلام والدي وشخصيّة سيادة المدير فاضطربتُ وارتبكتُ، وظللتُ أصبّ الماء بعد أن امتلأت الكؤوس، لينسكب نصفه على طاولة المائدة!

اغتاظ أبي كثيراً وقال:

-«ولد بهذا العمر ولا يعرف يصبّ الماء».

قال هذه الجملة، وأراد أن يمسح الماء عن الطاولة بمنديله، وإذا بيده تصطدم بطبق (السلطة)، فانقلب الطبق وانسكب في حجر أمّي!.

أجفلت أمّي، وجذبت نفسها جانباً لتتّقي السلطة، ولا توسخ ثوبها، فانسكب وعاء

الحساء على ملابس سيادة المدير !.

بالله عليكِ، أنظري العوج... أخذت أمّي تعتذر للمدير من جهة، وأمسكت بخدّ (فاطي) من جهة أخرى وقرصتها، وهي توبّخها !.

لم تسيطر (فاطي) على نفسها وأخذت تبكي، وقالت:

ـ «ماما.. أنتِ التي أسأت التصرّف.. لماذا تضربينني؟».

صاح أبي يخاطب أمّي، وقد بلغ به الغضب مداه:

ـ «ألم أقل لكِ من قبل، أن تقدّمي للأطفال طعامهم على حده؟».

أخذت أمّي في استرضاء (فاطي) فقالت لها بهدوء:

ـ «لا تبكي .. الناس لا يبكون أمام الضّيوف».

هدأت فاطي، وقرّبتْ أمّي وعاء الحساء لتملأ صحن سيادة المدير.. فكانت الكارثة الثالثة، إذ عندما أرادت أمّي أن تصبّ الحساء، سحب المدير صحنه جانباً، فانهمر الحساء في وعاء (الجيلي).

زعقتْ أمّي زعقة خفيفة تعبيراً عن ضيقها وقالت:

ـ «واه... جازاني الله. ما الذي فعلته؟».

وعلى أثر الرعونة التي أبداها كل من أبي وأمّي تحوّلت المائدة إلى فوضى واضطراب.. بدلاً من أن يرشّ والدي الملح في طبقه، رشّ الفلفل! وحين أدرك أنه فلفل قال:

المملحة في أيّ جهنّم؟».

ناولته أمّي حافظة الخردل بدلاً من المملحة! ولكنني كنتُ أكثر منهم رباطة جأش وهدوء أعصاب، فناولت المملحة لأبي، فقلبها ليرش منها، ولكن سوء حظّه شاء أن يقع غطاء المملحة فينهال كل ما فيها من ملح في صحنه!

كانت أمّي بالغة الاضطراب.. التفتتْ إلى المدير وقالت:

ـ «كيف حالكم؟».

دهش المدير من سؤال أمّي الذي لم يكن في محلّه، فضحك وسأل:

ـ «بماذا تفضّلتِ، حضرتكِ؟».

أرادت أمّي التي كانت في وضع لا تحسد عليه، أن تصحّح الأمر، فقالت:

ـ «كيف أصبح الطعام، جيداً؟ لائقاً بمقام حضرتكَ؟».

أجاب المدير، وهو يحاول بصعوبة أن يضبط أعصابه ولا ينفجر بالضحك:

-«سَلِمَتْ يداكِ.. لقد صار لذيذاً جدّاً!».

في هذه الأثناء علقت لقمة في حلق (فاطي)، فهرعت أمّي إليها، وأخذت تضرب ظهرها بيد، وتسكبُ الماء في فمها باليد الأخرى!.

كان أبي قد علّمنا من قبل أن نمسك السكّين باليد اليمني، والشوكة باليد اليسرى. ولكني أخفقت في تنفيذ ذلك بعد محاولات كثيرة.. حين كنتُ أمسكُ الشوكة بيدي اليسرى لم أكن أهتدي إلى طريق فمي! لذا طرحت نصائح الوالد جانباً، وأمسكتُ بالشوكةِ في يدي اليمنى، وبالسكين في يدي اليسرى.

كان أبي على وشك أن يقطع قطعة من اللحم في صحنه عندما لاحظ خطأي، فحدجني بنظرة صارمة، وفي الوقت ذاته طارت عظمة من تحت سكينه وحطتْ في طبق الفاكهة!..

انتهى الغداء في النهاية بالتي هي أسوأ.. وعدنا لنجلس في حجرة الضيوف.

عندما أحضرتْ أمّي القهوة أراد المدير، في ودّ، أن يخفّف عنّا.. التفت إليّ وسأل متلطّفاً:

-«في أي صفّ أنتَ يا صغير؟».

-«نعم! إني في الصف الخامس يا سيدي.. نعم!».

ولكي أتحقق من وقع استعمالي لكلمة (نعم) نظرت في وجه كلٍ من أمّي وأبي، فوجدتهما يضحكان، وعرفت أنهما راضيان..

سأل المدير مرة أخرى:

-«كم سنة عُمركَ؟».

-«نعم.. إحدي عشرة سنة.. نعم».

-«عمراً مديداً..».

اختلستُ نظرة إلى أمّي من جديد، فوجدتها تشير لي بفمها وشفتيها، تقول شيئاً. فهمت من ذلك أنها تقول لي أن أشكر المدير.. كسرتُ الصمت دون تمهيد وقلتُ:

-«نعم.. شكراً يا سيدي!.. نعم!».

لم يفهم سيادة المدير من هذا الشكر المتأخّر شيئاً، فانفجر ضاحكاً.. ولكي تداري أمّي الموضوع حملت طبق الفاكهة وقدّمته للمدير ليأخذ ممّا فيه، ثم قدّمته لوالدي.. وأخيراً جاء دوري ودور أختي (فاطي)..

وهكذا وضعتْ (فاطي) خاتمة مخزية للجلسة.. وبذلك كانت بطلة الأطفال الخارقين بحقّ..

عندما قدّمتْ أمّي لها طبق الفاكهة، أرادت (فاطي) أن تتناول حبّة موز. ولسوء الحظ فقد وقعت الموزة منها على الارض. وحيث أنّ أمّي كانت قد نبّهت إلى أنّه لا ينبغي التقاط ما يقع على الارض وأكله أمام الضّيوف، فقد قالت (فاطي) بصوتٍ عالٍ وهي تنحني وتلتقط الموزة عن الارض:

-«إنّ ما يقع على الارض لا يؤكل أمام الضّيوف».

التقطتْ الموزة عن الارض ووضعتّها على الطاولة، وتابعت تقول:

-«يؤكل بعد أن يذهب الضّيوف».

أراد أبي أن يغطي على كلام فاطي، فسعل عدة سعلات فقالت فاطي:

-«بابا.. الإنسان لا يسعل أو يعطس أمام الضّيوف، ولا يضع يده في فمه!».

قال والدي ضاحكاً وهو يرى أن فضيحة توشك أن تفجرّها فاطي:

-«ها.. فاطي، ماذا قلتِ؟».

أجابت فاطي بمنتهى الجدّية:

-«أمام الضّيوف لا يقال (ها) بابا... هذه قلة أدب!».

تضايق المدير كثيراً. نهض من مكانه ليذهب. شيّعه أبي وأمّي حتى الباب الخارجي.

وبعد أن ذهب الضّيف عاد والدي إلى الحجرة غاضباً وصرخ:

-«تفو..! لقد فضحتمونا!».

كما قالت أمّي:

-«يا عديمي التربية.. ما هذا الكلام الذي قلتماه؟».

أجابت فاطي بجدّية:

-«نحن لم نخطيء التصرّف.. لقد قلنا الكلام الذي علّمتموه لنا..».

ولكن هل يعترف الآباء والامهات بأخطائهم؟! لقد ظلّ أبي وأمّي حانقين علينا لعدّة أيام تالية.

عزيزتي زينب، لقد ثرثرتُ في هذه الرسالة كثيراً، أرجو أن لا أكون أوجعتُ رأسكِ..

أرسل لكِ الصورة التي كنّا قد أخذناها مع تلاميذ الصف. أرجو أن ترسلي لي صورة حديثة لكِ، إن كان ذلك ممكنا.

المخلص **أحمد تارباري**

○ ما أسوأ الغشّ..!

أنقرة ٦/أبريل/١٩٦٧

صديقي العزيز أحمد، لقد سررت بالصورة التي أرسلتها لي، فكل الأصدقاء القدامى فيها. أظنّ أنّ ذلك الواقف بجانبك هو (مينا)؟ أليس كذلك؟ ولكنه غير واضح تماماً. كما أن رأس حسين يحجب وجه (توران)! و (ياشار) يبدو وكأنه راكب على كتف (جنكيز)..

صديقي العزيز .. إنك لا تدري كم سرّتني رؤية هذه الصورة.. بالمناسبة: (أمير) ليس فيها! أرجو أن لا يكون مريضاً، لا سمح الله! يبدو معلمكم الجديد شيخاً هرماً على وشك الرحيل!

سوف أرسل لك صورة تضمّني وأخي، كان قد التقطها لنا ابن الجيران بآلة التصوير التي يملكها.

إنك لا تدري بالمصيبة التي حلّت بي هذا الأسبوع. لقد أطلقوا عليّ دون علمي لقب (ناقلة الغش)! إلاّ أنّ هذا اللقب لم يكن آتياً من فراغ تماماً.

إنّ أشنع الأشياء عند معلمنا هو الغشّ. فهو يحدثنا عن أضرار الغش، في كل حصّة يعطينا أيّاها.

يقول: «إن الغشّ هو اعتداء على حقوق التلاميذ الدارسين..». «الغشّ نوع من اللصوصيّة».. «إن كل من يغشّ يخدع نفسه، ولا يستغفل إلاّ ذاته!».

كما أن والدي يؤمن بهذه الأشياء ذاتها. وكلما اجتمع مع رفقائه راحوا يتحدثون عن ذكريات أيام المدرسة.

ذات ليلة، كان جدّي عندنا، كما كان يزورنا أصدقاء والدي، وقد أخذ الحديث يدور عن أيام الدراسة وذكرياتها. قال أبو (نورتن):

-«صحيح، هل تذكرون الفعلة الرائعة التي فعلها صبري الأقرع؟».

سأل أحد رفاق والدي:

-«ذاك .. كان له روائع كثيرة، فأيّها تقصد؟».

-«تلك، يوم علّقوا إجابات الأسئلة على ظهره بدبّوس!».

انفجر أصحاب والدي بالضحك دفعة واحدة. ولم تستطع السّيدات -زوجاتهم- أن يضحكن لأنهن لا يعلمن بالموضوع، فكيف تهدأ قلوبهن دون أن يدرين به؟.

قالت أمّ (نورتن):

-«أخبرونا بالأمر، لنضحك بدورنا!».

بلع أبو (نورتن) ريقه وبدأ الحديث:

-«كان (صبري الأقرع) -سامحه الله- يدرّسنامادة الرياضيّات يوم كنّا في الأول الإعدادي وكان من أجل أن يسيطر علينا، ويمنع أيّ غشّ، لا يكفّ عن الاعتداد بنفسه، ويقول: (كل شخص يغشّ.. أراه!).

وقد كان التلاميذ يرهبونه بالفعل ويخافون منه.. وعندما كان يعطينا أسئلة الامتحان، كانت عيناه تظلاّن ترقباننا، كي لا نستطيع أن نرفع رؤوسنا، أو ننظر إلى يمين أو يسار. كما يظلّ ينطّ من ركن إلى ركن في قاعة الامتحان مثل الجندب، ولا يترك زاوية إلاّ فتّشها.

وذات يوم (سقاه) أحد أصدقائنا (مقلباً) يفوق الوصف...».

قطع والدي الحديث وقال:

-«كأنه كان (نجدت سيكاري)؟».

-«نعم.. وهو الآن سفير كبير!».

قال واحد آخر من رفاق والدي:

-«كان معروفاً أن ذلك الغشّ وتلك (الحركات) التي كان (نجدت) يقوم بها، ستوصله ذات يوم إلى منصب ما!».

ضحك الجميع لهذه (السّخرية)، وتابع أبو (نورتن):

-«نعم.. كان (نجدت) غشّاشاً، ولكنه تلميذ مجتهد في الدرس كثيراً.. حلّ الأسئلة على الفور وكتب الإجابات على ورقة، ثم علقها بدبّوس خلسةً على (جاكيت) المعلّم من وراء. وحيث أن (صبري الأقرع) لم يكن يقرّ في مكان، فلا يستطيع التلاميذ أن يكتبوا الإجابات من على ظهره، فقد أخذ أحد التلاميذ يشاغل المعلّم بالحديث معه، إلى أن يفرغ التلاميذ الآخرون من فعلتهم! وقد تصادف في ذلك اليوم أنني لم أكن أعرف جواب أيّ من الأسئلة. وقد كاد وقت الحصّة ينتهي وما زال المعلم لم يقترب من ناحيتي، حيث لم يكن التلاميذ الآخرون يتيحون له الابتعاد عنهم... وهنا خطرت لي فكرة مبتكرة... سعلتُ عدّة مرات بصوتٍ عالٍ، وعندما التفتَ إليَّ (صبري الأقرع) تظاهرت بأنني أغشّ، وبأنني قد ارتبكت عندما رآني... وبالصدفة نجحتْ حيلتي،

وجاء الأستاذ إليّ. فوقف أمام مقعدي وأدار لي ظهره، ثم أخذ يراقبني خلسة كي يضبطني متلبّساً. وهكذا تمكنتُ من كتابة الإجابات جميعاً دون أن أغشّ!.

كان كل تلميذ يكمل ورقة إجابته ويخرج من الصفّ. وعندما ضرب جرس نهاية الحصة كنّا ما نزال في الصف ثلاثة، لم نفرغ من إتمام إجاباتنا. انتزع (صبري الاقرع) الأوراق منّا بالقوّة.. وحيث غضبنا من ذلك، فقد نسينا في غمرة انفعالنا أن ننزع ورقة (الغشّ) التي كنّا قد علّقناها على ظهره!

جمع الأستاذ أوراق الامتحان وذهب من فوره إلى حجرة المعلمين.. وهناك اكتشف زملاؤه عملة التلاميذ وراحوا يسخرون منه.. فغاب عن المدرسة ولم يعد إلاّ بعد أسبوع.

قلق التلاميذ وأخذنا نترقّب العقاب الشديد من المعلم ونعدّ الأيّام، ولكن ذلك لم يحدث، فقد صفح (صبري الأقرع) عن الجميع، واكتفى بإعادة الامتحان».

قال واحد آخر من زملاء الوالد في الصف:

ـ «وهل نسيتم المحنة التي سببناها لعلي القصّاب؟».

كان (علي القصّاب) هذا، يعلّمهم مادة التاريخ.. وكان في الامتحانات يجلس وراء طاولته ولا يغادرها، ولكنه يظل طوال الوقت يلقي بنظراته الثاقبة على التلاميذ مثل النور الكشّاف. وفي جلسات الامتحان لم يكن أحد من أولئك الجالسين في الصفوف الأماميّة يستطيع أن يغشّ.. ولكنّ الجالسين وراء يظلّون ينقلون عن أوراق التلخيصات التي أعدّوها مسبقاً، دون أيّ قلق! والسبب في ذلك أنّ الأستاذ كان مصاباً بقصر النظر، ولا يميّز البعيد.

جاء دور والدي بعد أن تكلّم الآخرون، فقطع حديثهم جميعاً وقال:

ـ «حقّاً، هل تذكرون الحيل والألاعيب التي كنّا نفتعلها في حصّة (حافظ صفري)؟».

أخذ أصدقاء والدي يقهقهون! ثم راح كل منهم يذكر حكاية إحدى الألاعيب أيام الدراسة.

كان (حافظ صفري) هذا يدرسّهم مادة الكيمياء في مرحلتهم الثانوية. وقد كان بالغ البخل عند وضع الدرجات. فعندما كان يضع العلامة للطالب، فكأنّما يتنازل عن أحد مبادئه الخلقية ويخسر شيئاً من شرفه!

في أحد امتحانات الأستاذ (حافظ صفري)، أخذ أبو (نورتن) ما يقرب من عشر ذبابات كبيرة، وحبسها داخل علبة كبريت. وعندما بدأ الامتحان كتب الإجابات على

قطع من الورق الرقيق، وربط الأوراق بأرجل الذبابات وأطلقها لتطير. وحيث كان حِمْل الذبابات ثقيلاً فإنّها لم تتمكن من الارتفاع في طيرانها، فكانت تطير على ارتفاع منخفض وتحطّ على الأرض بعد عدّة أمتار!

وعلى ذلك كان كل طالب تقع ذبابة في متناول يده، يأخذ منها الإجابات فيكتبها، ثم يربطها إلى الذبابة، ويطيّرها من جديد ليستفيد منها باقي زملائه!

ثم يشاء سوء الحظّ أن يدخل المدير إلى قاعة الامتحان وهي على هذا الوضع.

وتطير ذبابة من هذه الذبابات وتتجه إلى المدير مباشرة وتحطّ فوق صلعته! وتكون الفضيحة...

ظلّ أصدقاء والدي يضحكون مدةً على أثر تذكّر هذه الحادثة، سأل أخي (متين) الذي استهوته هذه الحكايات:

ـ«وماذا فعل مديركم؟».

ـ«على الرغم من أنّ الطلاب كانوا متآزرين معاً، فلم يَبُحْ أحد منهم بحرف، إلاّ أن المدير تمكّن من معرفة الطالب صاحب الذبابات، وأراد أن يطرده من المدرسة... وقد توسّط له الآخرون وتوسّلوا للمدير كثيراً حتى أنقذوه».

قال أحد رفاق أبي:

ـ«وصديقنا هذا، هو اليوم أستاذ جامعة كبير، لا يجاريه أحد في مكانته العلمية!».

قال أحد الضّيوف يسأل جدّي:

ـ«وأنتَ يا حاجّ، هل كنتَ تغشّ أيام الدراسة؟».

أجاب جدّي:

ـ«وهل هنالك تلميذ لم يغشّ أيام دراسته؟».

ثم شرع يروي إحدى ذكرياته:

ـ«كان عندنا امتحان شفوي.. وكان التلاميذ يدخلون إلى غرفة الامتحان ثلاثة ثلاثة. عندما جاء دوري دخلتُ مع اثنين من زملائي.. نادى المعلم على أحدهما، وكان هذا لسوء الحظّ أكسل تلميذ في الصّف.

أخذ المعلم يسأله وهو لا يجيب. بل ظلّ واقفاً يحدّق في المعلم مثل الصّنم... غضب المعلم وقال: (يا ولد، ألا تعرف أيّ شيء؟). ولكي يضع له درجة في النهاية، أشار إلى إبريق الماء الموضوع على الطاولة، وسأله: (ماذا يوجد في داخل هذا؟). ولكن

صاحبنا ظلّ صامتا كالجدار، وكأنّه أصمّ لا يسمع. همس له أحد التلاميذ: (هل لسانك مربوط بغلّ.. من الأغلال؟).

وعندما أعاد المعلم السؤال عليه، أجاب: (في الإبريق بَغل!)...».

في تلك الليلة ظلّ حديث الضّيوف يدور حول هذا الموضوع حتى ساعة متأخّرة. وبينما كنتُ أضحك وأتسلّى بما أسمعه من أحاديث، كنتُ أعاني من قلق غامض، ويدور في خاطري هاجس ما..

في صباح اليوم التالي، عندما ذهبت إلى المدرسة كان معلمنا يلعب الكرة الطائرة مع التلاميذ. وعندما فرغ من اللعب، وجلس يستريح على العشب، تقدّمت منه وسألته:

-«أستاذ.. هل أنتَ أيضاً كنتَ تغشّ في الامتحانات أيام الدراسة؟».

فاجأه سؤالي تماما، فأجاب في غمرة ارتباكه:

-«نعم.. كنتُ..».

تريّث قليلاً، ثمّ قال متابعاً:

-«ولكنّي لم أكن الوحيد الذي يغشّ.. لقد كان كل الطّلاب يغشّون!.. كان لدينا زميل من الطلاب ذكيّ جدّاً، لا يكاد المعلم يعطينا الأسئلة حتى يكتب هذا الزميل الإجابات ويسلّم ورقته ويخرج من قاعة الامتحان. وذات يوم كان عندنا امتحان في مادة الجبر. وكانت الأسئلة في غاية الصعوبة. أخذ التلاميذ يحاولون الإجابة دون جدوى، ولكن زميلنا الذكي أجاب كالعادة وسلّم ورقته وخرج، بينما أخذ التلاميذ يرمقونه بعين الحسرة والحسد، وهم يتمنون لو كانوا مكانه.

في الخارج كتب زميلنا هذا إجابات الأسئلة على ورقة مقوّاة، وثبّت الورقة في رأس خشبة طويلة، ورفعها وراء نافذة قاعة الامتحان. كان التلاميذ جاهزين للاستفادة من هذه الفرصة، فملأوا أوراقهم بسرعة البرق!».

...في غد ذلك اليوم كان لدينا امتحان في مادة الاجتماعيات. وكان (تركان) يجلس بجانبي. لا بدّ أنك تعرفه.. إنه ذاك الذي كلما سأله المعلم أجاب: (هل تكلمني يا أستاذ؟).

إنني أحبّ مادة الاجتماعيّات، وكنتُ قد قرأتُ الكتاب عدّة مرات، كما تصادف أن الأسئلة كانت سهلة.. كان السؤال الأول: (ما الذي يجب فعله كي لا يمرض الطفل؟). والسؤال الثاني: (ضرورة الاستفادة من أدوات لعب الأطفال، وطرق الاستفادة منها). والسؤال الثالث: (هل يجب معاقبة الأطفال أم لا؟).

كنتُ أعرف هذه الموضوعات غاية المعرفة، حتّى لاذكر أرقام الصفحات التي

وردت فيها من الكتاب... شرعت في كتابة الإجابة على الفور.. وبدأ (تركان) يرجو ويتوسل إليّ لأعطيه الإجابات. لم تكن لديّ خبرة بهذه الأمور، ولم أكن أفعلها أصلاً! ولكني من كثرة ما توسّل (تركان) وتضرّع، قلتُ له وأنا أرجف من الخوف:

-«افتح الكتاب على الصفحتين (٥١-٥٢) وانقل منهما».

فتح (تركان) الكتاب وكتب الإجابات بسرعة فائقة، حتّى أنّه سلّم ورقته وخرج قبلي.

وبعد الامتحان، خارج القاعة، جاء إليّ (تركان) وشكرني، وانقضى ذلك اليوم..

في اليوم التالي، كان المعلم قد صحّح الأوراق، وبينما هو يقرأ علينا علاماتنا، قال:

-«يا أولاد.. الآن سأقرأ عليكم ورقة أحد زملائكم.. افتحوا آذانكم جيداً».

سكتنا جميعاً، وأخذ المعلم يقرأ:

-«السؤال الأول: (ما الذي يجب فعله كي لا يمرض الطفل؟). أمّا الجواب، فافتحوا آذانكم جيداً كي تروا كم هو لطيف: (يجب تنظيفه باستمرار بفرشاة الملابس! انفض الغبار عنه، وعلّقه مدّة على حبل الغسيل. وعندما ينقضي فصل الشتاء ضعه مع غيره في بقجة، وضع في ثناياه دواء ضدّ العثّ! وإذا لم يكن متسخاً كثيراً فلا لزوم لغسله!)...».

رنّت ضحكات التلاميذ في الصّف، وقد ضحك بعضهم حتى سالت دموعه.

قال المعلم:

-«يا أولاد.. أسكتوا قليلاً كي أقرأ السؤال الثاني وتروا الجواب كم هو جميل!».

كان (تركان) قد احمّر من الخجل والإحراج وأخذ يبكي، كما لم يتح للمعلم أن يقرأ الباقي، بل نهض من مقعده وقال:

-«أستاذ.. لقد نقلتُ هذه الإجابات عن الكتاب».

ابتسم المعلم وأجاب:

-«لقد عرفتُ بنفسي أنكَ غشَشْتَ. ولكنك بدلاً من أن تنقل من فصل (حفظ الطفل) نقلت من فصل (حفظ الملابس)...».

كان (تركان) يتميّز من الغيظ ويهزّ قبضتيه ملوّحاً لي. وقال:

-«أستاذ.. زينب هي التي قالت لي الجواب!».

نظر المعلم في وجهي وهزّ رأسه، وقال:

ـ«إذن هكذا.. تغشّين وتغلطين الآخرين؟!».

لم يكن ثمة مجال للإنكار فقلتُ:

ـ«أستاذ.. أنا لم أقل شيئاً خاطئاً.. كل ما قلته هو رقم صفحات الكتاب التي فيها الإجابة».

وعندما أخذ المعلم كتاب (تركان) وقلّب صفحاته، تبيّن مصدر الغلط! لم يكن كتابه أصلاً يحتوي على الصفحتين (٥١ و ٥٢)، وإنّما يمضي الكتاب من الصفحة (٤٨) إلى الصفحة (٦٤) مباشرة. وقد راح (تركان) الحزين من ارتباكه ينقل ما جاء في الكتاب بحرفيته دون أن يلاحظ أرقام الصفحات أو يراجع نصّ السؤال!.

استدعى المعلم أمّي إلى المدرسة، وأخبرها بما جرى. وفي مساءِ ذلك اليوم احتج أبي وأمّي كثيراً على فعلتي.. قال أبي:

ـ«يا بنتي.. لقد ساءني ما فعلتِهِ كثيراً!».

وأحمد الله على أن جدّي كان عندنا في تلك الليلة قال لأمّي وأبي:

ـ«دعوها وشأنها... البنت ماذا فعلت؟ إنها لم تغشّ هي نفسها، بل غشّشت غيرها!».

قال أبي:

ـ«لا فرق في ذلك.. والأمران شيء واحد!».

ثم تدخّلت أمّي لتناصرني:

ـ«طيّب، لا تتجادلوا ... من فيكم لم يجرّب الغشّ؟».

أجاب (متين):

ـ«ولكنّهم لم ينمسكوا! أمّا هذه فإنّها ليست ذات كفاءة في الغشّ!».

غاظني كلام (متين) جدّاً.. ولو لم يكن أبي وأمّي في الغرفة لوثبتُ عليه واقتلعتُ شعر رأسه من جذوره!».

والآن.. مضىَ الأمر على خير. وسأنتظر إلى الأسبوع القادم لأرى ما يحدث! أنتظر رسالتكَ بفارغ الصبر. أكتبْ لي مفصلاً.

أرجو لكَ التوفيق.

زينب يالكر

○ دجاجة الجيران.. بيضها أكبر..

اسطنبول ٢٢/أبريل/١٩٦٧

الأخت زينب، وصلتني الرسالة التي أرسلتها في ٦ أبريل. وقد سررت كثيراً بالصورة المرفقة معها. كما تأثرتُ كثيراً بما حدث معكِ وكدّركِ.. إنّي أشاركِكِ الإحساس بالضيّق... لقد حاولتِ أن تساعدي زميلك، فكانت النتيجة اتهامكِ بالتقصير.

تضايقتُ من سلوك زميلكِ، وأشفقتُ عليه في الوقت ذاته... بالمناسبة: هل تعرفين زميلي (حسين)... إنه تماماً مثل زميلكِ، ارتكب خطأ أضحك التلاميذ جميعاً، ولكن (حسين) لم يشرك الآخرين في الذنب.

إنّ (حسين) صديق طيّب. كنتُ قد كتبتُ لكِ في رسائلي السابقة نموذجاً من تضحيته. تلك الحادثة، يوم دفعوه من فوق الشجرة ووقع على الأرض.. هل تذكرين؟ إنه لم يَنِمَّ عن أحد رغم إلحاح المدير ونائبه في السؤال عن الفاعل.

بالمناسبة، هل زرتِ بيت أهل (حسين) عندما كنتِ في اسطنبول؟ حتّى لو لم تزوري بيتهم، فلا بدّ أنكِ تعرفين أنهم عائلة فقيرة.. إنني أزورهم بين حين وآخر... بيتهم ضيّق جدّاً.. غرفتان من الطين المخلوط بالقشّ، فيهما يعيش أفراد العائلة السبعة.

(حسين) لأنه صديقي، يبوح لي بأسراره دائماً ويشكو لي همومه. وفي بعض الأيام، عندما يأتي إلى المدرسة وعيناه ناديتان بالدموع، أدرك أنه قد بكى في البيت كثيراً.

وبالطبع، فإن حسيناً ليس عبوساً دائم الكشرة، ولكن المتاعب التي يواجهها دائماً تذهب ببهاء وجهه وتضفي عليه تعبيراً من الهمّ.

لاحظتُ قبل عدة أيام أن عينيه منتفختان من فرط البكاء.. ولكنه لم يقل شيئاً.. ولم ينطق بكلمة واحدة حول الأمر.. دخل الصّف ومضى إلى مقعده مباشرة وجلس.

في ذلك اليوم، كنّا نأخذ درساً في (قواعد اللغة)، وكان المعلم يشرح لنا (حالات الإسم). وبعد أن بيّنها لنا، عيّن (الأمير) صفحة في الكتاب وطلب منه أن يقرأها بصوتٍ عالٍ. وكان في هذه الصفحة قصة عنوانها (البيت ذو النوافذ الذهبية).. لا بدّ أنكِ قد قرأتِها..

تقول القصة:

«كانت أسرة تعيش في كوخ بإحدى الغابات الصغيرة. وكان لهذه الأسرة بنت..

وعلى بعد يسير من الكوخ كان هنالك بيت آخر، حين تميل الشمس للغروب، تأخذ نوافذه تلمع كالذهب. وكانت بنت ساكني الكوخ الفقراء تندهش وتعجب من بريق نوافذ ذلك البيت الكبير، ويستولي عليها الإحساس بالفضول، فتودّ لو تعرف سرّ إلتماع النوافذ.

وفي النهاية، قرّرت ذات يوم أن تذهب إلى ذلك البيت وتكتشف السّرّ عن كثب.

وبالفعل، مشت إلى البيت بمفردها دون أيّ رفيق.. ولكنها حين بلغت البيت كانت الشمس قد أفلت وغطّى الظلام كل شيء. فنامت البنت حيث هي لتصحو في اليوم التالي وتحاول من جديد أن تحلّ هذا اللغز.

أفاقت في اليوم التالي مع شروق الشمس، فوجدت أن بريق البيت الكبير قد تلاشى، في حين أن كوخهم يبرق من بعيد.

أدركت عندئذ أن البريق ناتج من ضوء الشمس الذي يسقط على زجاج البناية فينعكس عنه».

بعد أن قرأ (أمير) القصة حتى آخرها سأله المعلم:

ـ«ما الذي نستنتجه من هذه القصّة؟».

لم يستطع (أمير) أن يجيب، كما أجاب التلاميذ الآخرون إجابات مختلفة.

استاء معلمنا قليلاً وقال:

ـ«ليس هنالك أبسط من هذا الموضوع.. إنه في غاية الوضوح. فالقصد من هذه القصة هو أن الجميع يرون (دجاجة الجيران بيضها أكبر!)، وكلّنا نرى بريق نوافذ الجيران، في حين أن نوافذ بيوتنا تملك الشيء ذاته. إنّ قصد الكاتب من هذه القصة هو أن يقنع الناس بأوضاعهم.. وإلاّ كانوا مثل هذه البنت التي لم تدرك، إلاّ بعد أن خسرت راحتها وهدوء بالها، إنها تملك ما يملكه الآخرون.. وخلاصة الموضوع هي (أن أفضل بيت هو البيت الذي نسكنه)....».

عندما ورد اسم (البيت) سأل المعلم حسيناً:

ـ«حسين.. قل لي: ما هي حالة (البيت)؟».

كان (حسين) جالساً داخل الصف، ولكنه غارق في بحر همومه المزمنة، فلم يكن سامعاً لما يقوله المعلم أصلاً. وحين سمع اسمه أجفل ونهض من مقعده، ثم سار إلى المعلم مترنّحاً، ووقف أمامه ساكتاً.

كرّر المعلم سؤاله:

ـ«سألت عن حالة (البيت)..».

ظنّ (حسين) أن المعلم يسأله عن (حالة) بيتهم، فأجاب وهو يحاول أن لا يسمعه الآخرون:

ـ«في غاية الاضطراب! وضعنا ليس جيداً!».

قال المعلم الذي تعجب من الجواب:

ـ«أين ذهنك يا ولد؟ لماذا تجيب بكلام فارغ! سألتكَ (البيت في أية حالة؟)..».

كان (حسين) ما يزال سابحاً في عالمه الخاص.. وحيث أنه لم يشأ أن يفشي أسرار عائلته الخاصة أمام زملائه، أجاب بصوتٍ مخنوق يخالطه البكاء:

ـ«حالة البيت ليست جيّدة!».

صاح به المعلم غاضباً:

ـ«أية حالة من حالات البيت ليست جيدة؟».

ـ«ولا واحدة منها جيّدة.. وخصوصاً اليوم، فقد صارت أسوأ!..».

انفجر التلاميذ جميعاً بالضحك! وحيث كنتُ الوحيد الذي يعرف قصد (حسين) فقد كدتُ أنفجر من الحزن!

سأل المعلم:

ـ«ولماذا ليست جيدة؟».

كان (حسين) يتحدث بصعوبة فأجاب بصوتٍ يحرق القلب:

ـ«لأنه.. لأنّ .. لأنّه..».

لم يستطع إكمال عبارته وسكت.

سأل المعلم مترفّقاً:

ـ«لأنّه .. ماذا؟».

ـ«لأننا غير قادرين على دفع الأجرة.. لأنّ.. صاحب البيت يريد إخراجنا منه..».

ضجّ الأولاد ضاحكين.. أمّا (حسين) فقد كان مثل لصّ مقبوض عليه.. طأطأ رأسه ومضى إلى مقعده وجلس.

نظرتُ إلى معلّمنا خلسة.. كان وجهه يبدو لفرط تألمه وحزنه مثل وجه مصاب بالسلّ أو بالسرطان.

وبعد أن تماسك قليلاً، قال بصوتٍ مخنوق:

ـ«كانت البنت الصغيرة كلما نظرت إلى نوافذ بيت الجيران تراها تلمع كالماس...».

ثم قطع حديثه فجأة وسأل (أمير):

ـ«أمير .. قل أنت: ما حالة البيت في هذا الاستعمال؟».

ـ«أستاذ .. البيْـ.. أستاذ.. البيت..».

سأل المعلم (محموداً):

ـ«قل أنت.. ما حالة البيت؟».

وحيث لم يكن (محمود) منتبهاً للموضوع أصلاً أجاب:

ـ«البيت مكان يسكنه الناس.. وحالته .. وشكله مكعب..».

ارتفع ضجيج التلاميذ بالضحك من جديد، وعندما أدرك (محمود) أنه قد (هرّف) في الكلام، قال برعونة:

ـ«البيت .. تكون حالته في بعض الأحيان جيّدة.. وفي أحيان أخرى تكون سيّئة!».

اتّضح أن مشاعر المعلم كانت أكثر اضطراباً من مشاعرنا جميعاً، لأنّه قال بصوتٍ أجشّ، دون أن يعير التفاتاً لجواب محمود:

ـ«إنّ أفضل البيوت هو البيت الذي نملكه، لأنّنا نعيش فيه.. وعلينا أن نعرف قيمة بيوتنا..».

بعد الظهر، عندما كنّا في طريقنا عائدين من المدرسة إلى البيت حاولتُ مواساة (حسين) والتخفيف عنه، ولكن متى كانت آلام الناس تشفى بالكلام؟

... لديّ في هذا الأسبوع أشغال كثيرة، ولذا فليس بإمكاني كتابة رسالة أطول.. وسوف أتلافى ذلك في الأسابيع القادمة إن شاء الله.

.. كيف الطّقس في أنقرة؟ الجوّ هنا ماطر، ولذا فإنّ (حالة) بيتنا جيّدة.. ما هي (حالة) بيتكم؟ أكتبي لي بالتفصيل. إني في انتظار رسالتكِ...

الذي لا ينساكِ

أحمد تارباري

○ الكذّاب عدوّ الله!..

أنقرة ١٤/مايو/١٩٦٧

عزيزي أحمد، أعتذر عن تأخّري كثيراً في الردّ على رسالتكَ، فقد كنتُ مشغولة بالتحضير للامتحانات... رأسي سينفجر من كثرة ما درستُ.. وفي ذاكرتي اختلط كل شيء ببعضه!

الامتحانات مصيبة عجيبة بالنسبة للتلاميذ! والحمد لله، لقد مضت على خير، ففي هذا العام قدّمتها على نحو ما بكل صعوبة، ولا أدري ماذا سيكون الوضع في السنوات القادمة!

قدّمت آخر امتحاناتي أمس، واليوم فرغ ذهني لكي أكتب لكَ رسالة.

كنتُ في الرسالة السابقة قد كتبتَ لي بعض الأشياء عن (حسين).. لقد ساءتني أخباره، فكتبت إليه رسالة أواسيه فيها وأخفّف عنه قليلاً.

لقد وقعتُ في هذه المدّة التي لم أتمكن فيها من الكتابة إليكَ، أحداث عجيبة غريبة.. ولكني لا أستطيع أن أحدثك عن أكثر من واحدة.. وهي تدور حول (متين)، أخي.

ربما كنتُ قد أخبرتُكَ من قبل أن (متين) كثير الكذب على والدي!. وكلما استمع أبي إلى أكاذيب (متين) غضب كثيراً، وفي كل مرّة يظل ينصحه بعض الوقت، يقول له:

-«يا ابني، يا حبيبي.. افعلّ كل ما تفعل، ولكن لا تكذبْ. فليس في الدنيا ما هو أسوأ من الكذب! والكذّاب عدوّ الله. وعندما يكذب الشخص كذبة ما، فإنه مجبور (لكي يخفيها) على أن يكذب كذبات أكبر منها. وبعد أن تنكشف تلك الكذبات، يرتكب ما هي أكبر منها لتبريرها، فكلّ كذبة تولّد كذبة أكبر، وفي النهاية يجد المرء نفسه متورّطاً في هذه الدوّامة الآسنة. ولهذا فإنّ كل الأديان والمذاهب في العالم اعتبرت الكذب إثماً عظيماً».

والطريف في الأمر أنه رغم كل هذه النصائح والمواعظ، ورغم الترغيب والترهيب، فإن والدي نفسه كان يحمل (متيناً) في بعض الأحيان على الكذب!

فمثلاً، كلّما زار والدي شخص ولم يرغب الوالد بلقائه أرسل (متيناً) إلى الباب وقال له: (قل إن والدي ليس موجوداً!).

وبالطبع، فإنّ هذه الأكاذيب (البيضاء) غالباً ما تنفضح، ولكن أبي لم يكن يهمّه.. وكأن كذب الكبار ليس عيباً، والصغار فقط هم الذين لا يملكون حقّ الكذب!

مضت عدّة أيام ووالدي يطلب من (متين) أن يحلق شعر رأسه. ولكن (متين)

الذي لم يكن مقتنعاً بهذا العمل كان في كل مرّة يختلق أحد الأعذار.

أمس، عنّفه والدي وقال له:

ـ«اذهب على الفور واحلق شعرك».

ولكن (متين) ظلّ على عناده، وربما قد نسي. وبعد الظهر، عند موعد عودة الوالد من العمل، جاءني (متين) وقال لي:

ـ«ماذا أعمل؟ بماذا أجيب أبي؟».

أجبته:

ـ«الأفضل أن تقول الحقيقة. ما فائدة الكذب؟».

ـ«إذا قلت له الصدق يزعل».

ـ«قل له ضيّعت نقودي!».

ـ«هذه قلتها مرّة وانكشف كذبي!».

ـ«قل: لم يكن عندي قلم ودفتر، فدفعت النقود لشرائهما!».

ـ«وهذه أيضاً لا تنفع.. أمس اشترى لي أبي قلماً ودفتراً!».

ـ«إذن، اسمعْ منّي، وقل الصدق».

ـ«لا ... الصدق لا ينفع!... سأقول له إن صالون الحلاقة كان مزدحماً، ولم يصلني الدور!».

وقبل أن أجيب كان (متين) قد استبعد هذه الكذبة، ثم طرأت على ذهنه عدّة كذبات أخرى، ولكنها لم تكن طبيعية كلها!.

... لوالدي صديق اسمه (ضياء بيك).. وفي تلك الليلة كان (ضياء بيك) وزوجته ضيوفاً عندنا.. وبالصّدفة تأخّر والدي ولم يعد إلى البيت.

مضت على موعد عودته ساعة.. ساعتان... ثلاث ساعات... ولم يعد. بدأت أمّي تقلق وتتساءل عن سبب تأخّره. كما أخذ الشّك يساور الضّيوف.

سأل السيد (ضياء):

ـ«أين يكون في رأيكِ؟».

أجابت أمّي رغم قلقها:

ـ«كائناً أينما كان.. فلا بدّ أن يظهر الآن».

ولكن مضت مدّة أخرى في الانتظار دون أيّ خبر عن الوالد.. لم تعد أمّي تسيطر

على أعصابها، قالت:

-«لم يسبق له أبداً أن تأخّر على هذا النحو».

وهنا جاء دور (ضياء بيك) ليطمئن أمّي بعد أن كانت قبل قليل هي التي تطمئنه، قال:

-«لا بدّ أنّه انشغل بعمل ما».

أجابت أمّي التي بان القلق على ملامحها:

-«ولكنه اعتاد أن يخبرنا في أحوال كهذه».

تعشّيت أنا و(متين) وذهبنا لننام. وقام (ضياء بيك) وزوجته يستأذنان بالانصراف بدورهما، وإذا بجرس الباب يرنّ.. هرعت أمّي إلى الباب قلقة مضطربة وهي تقول: «ها هو .. جاء».

كان (ضياء بيك) إنساناً ظريفاً يحبّ المزاح، قال:

-«سوف نختبيء، لنتفرّج على فصل ممتع، ونضحك!».

دخل (ضياء بيك) وزوجته إلى الحجرة المجاورة. فتحت أمّي الباب، وقالت لأبي بشيء من الضيق:

-«أين كنت؟ قلقنا عليك».

أجاب أبي بكل هدوء:

-«لقد مرض السيد (ضياء) وكان في حالة سيئة.. فذهبت أزوره وأطمئن عليه!».

كانت أمّي تتماسك بصعوبة كي لا تنفجر بالضحك، قالت له:

-«عجيب! عسى أن لا تكون حالته خطيرة؟!».

-«الأمل بالله! فالرجل قد يموت! على كل، نسأل الله أن يشفيه!».

كان والدي ما يزال يدعو للسيد (ضياء) بالشفاء وهو يظهر آيات الحزن والتأثر، عندما خرج السيد (ضياء) وزوجته من الحجرة المجاورة وهما يقهقهان!.

لو أنّ والدي رأى عزرائيل بدلاً من ضياء وزوجته لما ارتبك هذا الارتباك، ولما تضايق هذا الضيق.. فقد انعقد لسانه من الإحراج. قال:

-«هـ.. هل.. كنت.. كنتما.. هنا.. حقاً؟».

ضحك (ضياء بيك) وقال:

-«أردنا أن نتسلّى قليلاً!».

أجابت أمّي بغمزة إضافية:

-«حقّاً لقد تسلّينا تماماً!».

لم يفتح أبي فمه من الخجل.. مضيت مع الضيوف وجلست إلى المائدة.. أمّا (متين) فقد اختبأ من الخوف.

سأل والدي:

-«هل (متين) نائم؟».

أجابت أمّي:

-«نسي الولد أن يحلق شعره، وحيث لم يشأ أن يكذب، فقد نام دون أن يتعشّى!».

خجل والدي كثيراً حتى سال عرق جبهته... وهكذا، نجا (متين) من الصراخ والتّعنيف.

كنت أودّ لو أقول إن الكذاب عدوّ الله، ولكنّي لم أجرؤ على ذلك.. لأنني كنت مستغرقة بالتفكير بكذبة أقولها لأمّي وأبي إذا رسبت في الامتحانات أو كان لديّ دور ثانٍ!.

.. في الرسالة القادمة.. سأكتب لكَ إن شاء الله عن نتيجة الامتحانات بالتفصيل.

صديقتك المخلصة **زينب يالكر**

○ حفل آخر السنة الدراسية

اسطنبول ٢٧/مايو/١٩٦٧

أختي العزيزة زينب، مضت مدّة دون أن أتلقّى منكِ أية أخبار.. تراكِ زعلتِ من تأخري في الردّ على رسالتكِ؟! للوهلة الأولى يبدو الحقّ معكِ، ولكن حين أخبركِ بالسبب، فسوف يثبت لديكِ أنني لستُ مقصّراً كثيراً... لقد كنّا منهمكين في التحضير لحفل اختتام السنة الدراسية. وقد كان العمل من الكثرة والصعوبة بحيث لم أجد وقتاً كافياً لأكتبَ إليكِ.

أمس، أجرينا هذا الاحتفال، وكان راقياً جدّاً وممتعاً جدّاً... لم أضحك في حياتي كما ضحكتُ أمس.. وقد كان سبب جودة الاحتفال ونجاحه، الأخطاء التي ارتكبناها! وقد ارتكبت أنا أكبر هذه الأخطاء، ولهذا فقد فزتُ بلقب بطل الحفل!.

كانت كل فقرات الحفل تحت إشراف معلم الصفّ الثالث.. فهو الذي أعدّ الموسيقى والأغاني والرقصات.. أمّا معلم الصفّ الرابع فقد كتب مسرحية أخلاقية ليمثّلها التلاميذ في الحفل..

... لقد قرأتُ في سير كثير من العظماء أنهم لم يكونوا راضين عن أعمالهم ووظائفهم التي يشغلونها! وحتّى أبي نفسه على هذه الشاكلة، فهو دائم الشكوى من عمله، ولا يكفّ عن القول:

ـ «لو كنت أستطيع الدراسة، لكنت الآن شاعراً شهيراً!».

وعمّي، وهو صناعيّ فنيّ ناجح، دائم التذمّر والشكوى، نادم أبداً على كونه لم يدرس مادة الطّب، ولم يتخصّص في هذا المجال!.

ومعلمنا في المدرسة، من هذا النوع أيضاً، فكلّما انفتح الحديث في الصف، قال:

ـ «كان ينبغي أن أكون كاتباً».

وبناء على ذلك، كلّفه مدير المدرسة بكتابة مسرحيّة تقدّم في حفل آخر العام الدّراسي. ولكي يبرهن المعلم على ما يدّعيه دائماً، أخذ يكدح ليل نهار، ولعدة أسابيع، ليكتب في النهاية مسرحية أخلاقية راقية. وكانت المسرحية (دراما) قوية وجيدة، خلاصتها:

«ولد لا يهتم بدروسه، يتسرّب من المدرسة، وفي البيت يظلّ يهيل المتاعب على رأس أمّه وأبيه.. وفي النهاية تقوده مصاحبة الأولاد المتشردين إلى تعاطي القمار، وتؤدي به إلى السجن. وتحت وطأة الفضيحة تموت أمّه كمداً، كما يُبتلى أبوه بالجنون. وفي السجن يثوب الولد العاقّ إلى رشده، ويتوب ويقرّر الإقلاع عن الأعمال غير اللائقة. وعندما يخرج من السجن، يعود إلى والده ويطلب منه العفو. يقول الوالد الشيخ وعيناه مغرورقتان بالدموع: (الوالد يسامح ابنه دائماً... إمْضِ يا ابني سامحك الله وغفر ذنوبك!). ولكنه على أثر الانفعال والتأثر يخرّ ميّتاً!».

عندما أخذ المعلم يقرأ لنا المسرحية داخل الصف، كانت الدموع تنهمر من عيون التلاميذ كالمطر. قلت للمعلم:

ـ «أستاذ .. ألم يكن من الأفضل، لو كتبت لنا مسرحية كوميدية؟».

زعل المعلم من هذا الكلام كثيراً وقال:

ـ «أحمد.. أنتَ تلعب دور المخالف دائماً... في حفل المدرسة لا تجوز المسخرة!».

بالطبع، لم يكن قصدي هو أن يكون العرض ساخراً، بل كنتُ أريد القول إنّه بدلاً من أن نلعب أدوار الكبار، علينا أن نقدّم عرضاً له علاقة بالتلاميذ، وممّا يقع في محيط المدرسة! ولكني لم أستطع الإفصاح عن قصدي. ففي الاحتفالات السابقة كنتُ قد رأيتُ التعب ووجع الرأس اللّذين يسبّبهما تمثيل أدوار الكبار، وإلصاق اللحية

والشوارب. وقد كان الاولاد يبدون باللّحى والشوارب وملابس الكبار مثل مهرّجي السّيرك. ومهما يكن العرض جاداً ودرامياً فلا بدّ أن يتحوّل إلى عرض كوميدي، ولا بدّ من أن يستثير ضحك الناس!. نعم كنتُ أريد القول إن علينا على الاقل أن نختار عرضاً ساخراً حتى لا يكون الامر متناقضاً.. ولكن حين صاح بي المعلم لذت بالصّمت.

كان في المسرحية التي أردنا تقديمها خمسة أدوار. ولأنّ اعتراضي لم يعجب المعلم فقد قال لي:

-«يجب عليكَ أن تلعب دور الولد العاقّ، لانكَ تستطيع الاضطلاع بهذا الدور جيداً!».

كما تقرّر أن يقوم (دمير) بدور الاب، وتقوم (مينا) بأداء دور الامّ.

كتبنا أدوار المسرحية وحفظناها، ثم صعدنا إلى خشبة المسرح للتدرّب عليها. وفي آخر يوم من أيام التدريب بدأ المطر ينهمر. أظنّك لم تنسي، كلما نزل المطر، كيف تنهمر الانهار من شقوق السقف! وفي ذلك اليوم كان السقف كأنه غير موجود، والمطر يهطل من السماء على خشبة المسرح مباشرة.

ولكي لا تتبلّل ملابس التلاميذ الخاصّة بالمسرحية، وُضعتْ بعض الطناجر والاواني تحت شقوق السقف التي كانت تسرّب الماء.

كان العرض يضمّ إلى جانب المسرحيّة رقصة صينيّة، وعلى الرغم من أنه لم يكن لها أية علاقة بالعرض، إلاّ أن المعلم كان قد شاهدها في احتفال إحدى المدارس وأعجبته، فأدخلها إلى العرض، ولم يلتفت إلى اعتراض أحد!.

.. تحت المطر، وبين الاواني والطناجر، كان علينا أن نؤدي الرقصة الصينيّة. وألواح خشبة المسرح، هل تذكرين الصرير الذي تصدره كلما داس أحد عليها؟

الرقص الصيني هاديء جدّاً ورزين، ولكني لم أستطع السيطرة على نفسي فأخذت أتسارع شيئاً فشيئاً! وكان معلمنا يصيح فوق رأسي: «أحمد.. لا تستعجل! لا تطرْ! نحركْ بهدوء أكثر!».

في ذلك اليوم لا أذكر ما الذي حدث أثناء تأديتنا للرقصة الصينيّة، فتذكّرت رقصاتنا، و دون أن أشعر رحتُ أدْبكُ!.

اغتاظ معلم الرقص جدّاً، وأراد أن يصل إليّ فاصطدمت رجله بإحدى الطناجر المملوءة بالماء، فاندلق ماء المطر المخلوط بالطيّن على ملابس التلاميذ! وعندما رأى التلاميذ أن ملابسهم قد اتّسخت زعلوا جميعاً..

قبل بدء الحفلة بلحظات سيطرت علينا حالة من الانفعال والهياج.. نظرت من ثقوب ستارة المسرح إلى قاعة المتفرجين فوجدتها مزدحمة لا مكان فيها لإبرة. جميع آباء وأمهات التلاميذ حضروا ... ومدير التربية ... ومديرو المدارس الثانوية.. وجميع المعلمين... كل هؤلاء جاءوا يشهدون الحفل.

كانت الفقرة الأولى إلقاء النشيد الوطني. وتم إلقاؤه بمشاركة خمسة من التلاميذ... ولم يقصّروا في ذلك. وعندما انتهى النشيد الوطني ونزلت الستارة، ذهبنا إلى غرفة تبديل الملابس لكي نرتدي ملابس المسرحية، وظلّ على الخشبة اثنا عشر تلميذاً لتقديم الفقرة الثانية.

كانت الفقرة الثانية نشيداً للأطفال.. كنّا ونحن في حجرة تبديل الملابس نسمع تصفيق المشاهدين وتشجيعهم.

ولكن معلم الموسيقى لم يعجبه (النشاز المنفر) الذي ألقاه التلاميذ فأخذ يصيح:

ـ«ما هذا النشاز الذي يصمّ الآذان؟ متى علّمتكم هذا؟ كان نشازاً مضاعفاً! بل مضاعفاً عشرة أضعاف!».

كانت الفقرة الثالثة هي الرقصة الصّينيّة.. ارتدت البنات أثواباً حريرية طويلة، وحملن في أيديهن أطباقاً كبيرة وأخذن يحرّكنها بطريقة موحية.. أمّا الأولاد فقد ضيّقوا أعينهم وأطالوها باستخدام الأصباغ والماكياج ليظهروا بمظهر وجوه الصّينيّين، كما ألصقوا فوق شفاههم شوارب طويلة متدلّية.

انفتحت الستارة، وأخذ معلم الموسيقى يعزف على (البيانو).. صعدنا إلى خشبة المسرح.. وصعدت البنات وراءنا.. وبدأن في الرقص وهنّ يحملن في أيديهن الأطباق.. وأثناء ذلك حدثت مفاجأة طريفة!

دخل طرف ثوب إحدى البنات بين ألواح خشبة المسرح وعلق هناك.. بدأت البنت تناضل لتخليص ثوبها من بين ألواح الخشب، ولكن دون فائدة. وعندما جذبت ثوبها بقوة انفصل عن بعضه عند خصره، وسقط الجزء المنفصل على الأرض!

ظلت البنت المسكينة على خشبة المسرح (بالشّورت)! وارتفعت قهقهات المتفرجين في القاعة. وأخذ معلم الموسيقى يصيح من الكواليس: (أنزلوا الستارة!). ولكن أحداً لم ينتبه إليه أو يصغي لما يقول، كانت أنظار الجميع وأذهانهم مع البنت! وأخيراً نزلت الستارة أثناء تصفيق المشاهدين! وبهذا الإجراء حذفوا فقرة الرقص والغناء، وتقرّر أن نقدم مسرحيّتنا.

كان معلمنا قد عمل لنا (الماكياج) بنفسه. وكان (ماكياج) (مينا) متقناً حتى لتبدو

عجوزاً في الثمانين أو التسعين من عمرها. كما جرى تركيب لحية وشوارب من القطن بلونه الأبيض لدمير الذي سيلعب دور أبي.. أمّا أنا فقد كان عليّ فقط أن أركّب شوارب. وعندما ركّبناه للمرة الأولى لم يكن الصمغ كافياً، فلم يلتصق جيداً وكان على وشك السقوط. قام المعلم للمرة الثانية بتصميغ شفتي العليا، ولصق الشارب من جديد.. وبعد أن تمّ (الماكياج) قال المعلم:

ـ«يجب على (دمير) أن يلبس نظارات طبّية ليبدو أكبر سنّاً!».

لم يحسبوا حساب ذلك من قبل، والآن لا يدرون من أين يجلبون تلك النظارة..

قدّم المدير نظارته وقال:

ـ«يا ابني العزيز.. انتبه كل الانتباه كي لا تكسر النظارة.. فأنا بدونها لا أرى شيئاً».

عندما لبس (دمير) النظارة، أصبح بالفعل مثل شيخ هرم، ولكن المشكلة أنه لم يعد يرى شيئاً.. عندما انفتح الستار، ضلّ (دمير) الطريق، ولم يدْرِ أين يذهب. أمسكته من يده، وقُدْتُه بهدوء إلى خشبة المسرح.

مضى الفصل الأول جيداً جداً، أمّا في الفصل الثاني، عندما أخذت في إيذاء أمّي، وحيث ينبغي على والدي أن ينصحني، فإنّ (دمير) أضاعني على خشبة المسرح! فبدلاً من أن يتوجّه إليّ ويتكلم، وقف ينظر إلى الجدار وظهره إلى المتفرجين وأخذ يمثّل ويقول:

ـ«إيه يا فلذة كبدي.. لقد تعبنا كثيراً حتّى ربّيناك».

اقتربت منه وقلت له خلسة:

ـ«نحن هنا!».

ولكنه لم ينتبه.. بدأت أضرب أمّي وأسبّها وأنا أصيح وأحدث جلبة، لعلّ (دمير) يلتفت إلينا، ولكن ذلك لم ينفع. وكان منهمكاً بالحديث مع الجدار، يقول له:

ـ«لا تضرب أمّك.. إسْتَحِ.. خفْ من الله.. يا ولد يا ظالم!».

رفعتُ صوتي أكثر، ولكن (دمير) لم يلتفت أدنى التفات، بل مشى إلى الجدار وأسند يده عليه! ضحك المتفرجون، كما ضحكت أنا..

نسيت دوري وقلت بصوتٍ عالٍ:

ـ«أنا هنا يا والدي!».

كان (دمير) سريع البديهة فقال:

-«لا أريد أن أرى وجهك.. إني أكرهك ولا أطيقك.. أيها الولد العاقّ..».

قلتُ لنفسي، ها هو قد انتبه، فلا بدّ أن يلتفت ناحيتنا.. ولكنه لم يفعل... كانت فضيحة كبيرة على وشك أن تحدث.. (دمير) ماضٍ يسبّ الجدار ويلعنه، وأنا في كل مرّة أصيح بصوتٍ أعلى من سابقه:

-«أنا هنا يا والدي».

في النهاية، وتبعاً لنصّ المسرحيّة قتلتُ أمّي، فوقع أبي على خشبة المسرح، وأخذ يبحث عن أمّي وهو يحسّس مثل العميان، ويقول:

-«أين أنتِ؟».

وعندما رأتْ أمّي أن أبي لا يستطيع العثور عليها، زحفت نحوه زحفاً وقالت:

-«ها أنا هنا.. وقعت هنا وَمُتّ!».

كاد المشاهدون يغمى عليهم من الضحك. وهاجت القاعة وماجت بأصداء ضحكهم... وصاح معلمنا من وراء الكواليس مرّة أخرى:

-«أغلقوا الستارة!».

دخل المدير علينا وراء الكواليس، وقال يشاجر (دمير):

-«ما هي المسخرة التي قدّمتموها؟».

قال (دمير):

-«أستاذ.. ماذا أفعل؟ بالنظارة لم أكن أرى شيئاً»

-«طيّب.. مثّل بدون نظارة!».

اعترض معلمنا قائلاً:

-«لا يجوز يا أستاذ.. مثّلنا فصلين من المسرحية بنظارة، والآن في الفصل الثالث، عندما صار الرجل أكبر في السّنّ واقترب أجله، كيف نمثّل بدون نظارة؟».

رأى المدير أن المعلم على حقّ فقال:

-«يا ابني يا حبيبي.. أنظر من تحت الزجاج!».

لم يكن (دمير) يعرف كيف ينظر من تحت زجاج النظارة فقام المدير بتعليمه ذلك وقال له:

-«انتبه جيداً جدّاً... إياكَ أن تكسر النظارة!».

في الفصل الثالث لم نرتكب أية أخطاء، ولكن الناس بعد أن ضحكوا من قبل، فقد أخذوا يهمّون بالضحك بعد كل جملة نقولها..

في هذا الفصل خرجتُ من السجن.. وندمتُ على سلوكي السابق، وأردت أن أطلب العفو والصفح من والدي. لم يكن هذا الجزء من المسرحية مضحكاً.. ولكن الناس ضحكوا حتّى شبعوا! عندما انحنيْتُ أبوس يد والدي، أتدرين ماذا رأيت؟ رأيت (فردة) من شاربي واقعة على الأرض! لم يكن من المناسب أن أنهض بفردة شنب واحدة، فقلت:

- «اسمح لي يا والدي أن أبوس قدميك!».

تمدّدت على الأرض، والتقطتُ فردة شنبي وأردت أن ألصقها، ولكنها أبتْ أن تستقرّ على شفتي.. ألصقها فتقع! رأيت أن لا فائدة، فوضعتها على شفتي وأمسكتها بيدي وأنا أتخذ سيماء الشخص الذي يداعب شاربه!».

سامحني (دمير) طبقاً لنصّ المسرحية.. ثم كان علينا أن نتعانق ويقبّل أحدنا الآخر. عندما نظرتُ في وجهه رأيت الدموع تنهمر من عينيه! لقد كان يبكي بالفعل دون تمثيل. كما كان المشاهدون مأخوذين بالمشهد، ينظرون إلينا باستحسان وصمت كامل.... والسرّ -أقوله لكِ، فلا تقولي لأحد- هو أن النظارة كانت تضايق (دمير) وتضطره لسكب الدموع!

فتح (دمير) ذراعيه فتعانقنا، وتبادلنا التقبيل... وعندما انفصلنا رأيت وجه والدي يخلو من أيّ أثر للّحية... أردت أن أداعب شاربي فلم أجده، ووجدت لحية (دمير) ملتصقة بوجهي! الآن صار لي شكل والدي.

كان على والدي، تبعاً لنصّ المسرحية أن يقع على الأرض ويموت.. ولكنه ظلّ واقفاً على خشبة المسرح مثل عود الزّان!. قلت له خلسة:

- «دمير.. اسقطْ على الأرض ومُتْ!».

- «ولكن لحيتي ظلّت عندك.. أنتَ صرتَ الأب!».

- «لا.. يا حبيبي أنتَ الأب.. مُتْ بسرعة».

لم يقتنع (دمير) وظلّ على إصراره وقال:

- «أنت يجب أن تموت!».

بدأ الناس في القاعة يضحكون من جديد.. رأيت أن كل جهودنا توشك أن تصير هباء. اقتربت منه وقلت له:

ـ«لا تخرّب الشّغلة.. هيّا إرمِ نفسكَ على الأرض».

قال (دمير) مرة أخرى وهو متردّد:

ـ«أخاف أن أرمي نفسي على الأرض فتنكسر نظارة المدير!».

ـ«لجهنّم.. هيّا .. مُتْ حتى تخلص من هذه الورطة!».

عاد (دمير) إلى الدور الذي يلعبه فقال:

ـ«يا بنّي الغالي.. لقد سامحتكَ فليسامحْك الله!».

قال ذلك، ثم، بكل هدوء أعصاب، خلع نظارة المدير عن عينيْه، ووضعها على الطاولة بكل عناية وقال:

ـ«الآن.. أموت!».

وقع على الأرض! وارتفع صوت المعلم مرة أخرى «اسحبوا السّتار!».

عندما أغلقت الستارة، نهض دمير عن الأرض مثل الموتى وقال:

ـ«أحمد.. كلانا لا حول لنا ولا قوّة.. وسوف يعنّفنا المدير كلينا...».

انسحبنا إلى ما وراء الكواليس ونحن نقدّم خطوة ونؤخّر أخرى من الخوف. كانت الدموع في عيون المدير والمعلمين من فرط الضحك. كما اهتزّت القاعة بتصفيق المشاهدين.

أعطوني أنا ودمير جائزة على جهلنا! وفاز برنامج معلمنا الذي قدمه في الحفل، بجائزة أحسن مسرحية أطفال! وقد أدركت أخيراً أن الإنسان يستطيع أن يفعل بعض الأشياء عن جهل، فتكون النتيجة أفضل بكثير مما يفعله البعض عن علم!.

... لقد بدأت بوادر الصيف الجميل بالظهور في اسطنبول، الطقس لطيف جداً.. أرجو أن نتلاقى في اسطنبول أثناء عطلة الصيف..

أتمنى لكِ التوفيق من الله تعالى.

أحمد تارباري

○ مسابقة للصغار في كتابة القصة..

اسطنبول ٢/يونيو/١٩٦٧

أختي العزيزة زينب، أمس أرسلتُ لكِ رسالة بالبريد، واليوم ها أنا أرسل لكِ واحدة أخرى.

إذا كنتِ تعتقدين ما أعتقده فإنّ بإمكاننا بالتعاون معاً، أن ننجز عملاً مهمّاً. فقد سمعتُ أن هنالك مسابقة للصغار في كتابة القصّة ستجري.. أتدرين ماذا خطر لي؟

نجمع الرسائل التي أرسلها كلٍ منّا للآخر، ونخرجها على هيئة كتاب!.

وأنا أعدكِ بأن تكون أفضل من كل ما كُتبَ للصغار إلى غاية الآن، وأن تفوز بأحسن جائزة لقصص الأطفال.

لقد جمعتُ كل الرسائل التي بعثتِ بها إليَّ. كما أنك قد كتبت إليّ في رسالة سابقة، أنك تحفظينَ رسائلي إليكِ في ملفّ خاص...

أكتبي إليّ رأيك على الفور، لأرى إن كنتِ تحبذين اشتراكنا في هذه المسابقة أو لا.

إذا كنتِ موافقة على ما أخبرتكِ به، فابعثي إليّ بالرسائل التي كنتُ قد كتبتها لكِ، بالبريد الجوّي، لأنّ عليّ أن أقوم بترتيبها وتصنيفها في أسرع وقت ممكن، قبل أن يغلقوا باب المسابقة.

سوف نشترك في المسابقة باسمي واسمك معاً، وأنا واثق أننا سنفوز كلانا. أرجو أن لا تكلّمي أحداً حول هذا الموضوع، فأنا أحبّ أن نفاجىء أسرتيْنا بالخبر في حال فوزنا!. وإذا أخفقنا في الفوز، نكون قد حفظنا ماء وجهيْنا ونجونا من سخرية الأصدقاء والأقارب!.

أرجو أن تبلغي سلامي إلى كل زملائكِ في الصف.. إني أنتظر ردّكِ بفارغ الصبّر.

أحمد تارباري

○ ستكون الأول!

أنقرة ٦/يونيو/١٩٦٧

صديقي العزيز أحمد، وصلتني رسالتك قبل ساعات، وقد أعجبتني فكرتك جدّاً.. حقّاً إنها لفكرة راقية.

سوف أرسل لكَ كل الرسائل التي كنت بعثت بها إليّ، والتي جمعتها معاً... ولكن هنالك شيئاً يقلقني.. أتدري ما هو؟ لقد كنّا في هذه الرسائل لا نكفّ عن التطاول على معلمينا وآبائنا وأمهاتنا.. وكنا نسيء لذكرهم. فماذا سنفعل عندما يقرأون هذه الموضوعات وما هو ردّ فعلهم عليها؟!

فإذا افترضنا أننا لن نهون على آبائنا وأمهاتنا، فما حال معلّمينا؟! ومهما كانوا منصفين، هل تظن أنهم سيغضّون الطرف عمّا قلناه في حقهم رغم صدقه وصحّته، وأنهم سوف يعطوننا في الامتحانات الدرجات التي نستحقّها؟

على أية حال لا أحبّ أن أخالف فكرتك، ولكن لديّ اقتراحاً، هو أن تختار لك اسماً مستعاراً تذيّل به رسائلك.. أمّا أنا فقد اخترت اسم (زينب). أمّا بخصوص الفوز، فإن علينا أن لا نحمل أي شك، فمن البديهي أننا سنفوز بالجائزة الاولى.. وعلى فرض

أننا فشلنا، فما المانع؟ ولماذا نرتبك؟ لقد كنت في بعض الأحيان أطالع رسائلك وأنا أرتّبها.. فكنت أجد أن موضوعاتها جيدة جدّاً، وخصوصاً عندما ترتّب وتنظّم وتنشر متتابعة، فلا شك أنها ستكون أحسن وأجمل.

لقد قرأتُ حتى الآن الكثير من قصص الأطفال، ولكني أقول بثقة أن أيّاً منها لم تكن بحسن روايتنا هذه.

إذا لم تفُزْ روايتنا، فأنتَ الأول في النهاية مع ذلك... لأنكَ ستكون أباً ذات يوم، وسوف تقول لأطفالك:

ـ «لقد كنتُ الأول في صفّي دائماً!».

لا أريد أن أجاملكَ، ولكنني مطمئنة لفوزنا، بسبب ما تملكهُ من ذوق وحبّ للكتابة.

أتمنى لكَ التوفيق.. وسلامي لكل الأصدقاء.

زينب يالكر

○ رسالة المؤلف للصغار..

أيها الصغار الاعزاء.

لا تعجبوا إذا كنت أحبكم مثل صغاري.. أحبكم أنتم أطفال بلادي، وأحبّ معكم كل الاطفال على وجه الارض.

إنّي أعلم أنكم على درجة من الفطنة وأنكم تعرفون حقيقة الامور، ولكني أريد أن أوضح لكم ما جرى.

إن الرسائل التي قرأتموها في هذا الكتاب، بلغة سهلة مألوفة، والتي جاءت على لسان زينب وأحمد، لا حقيقة لوجودها في الواقع. فأنا الذي كتبتها وأنا الذي اخترعت هذين الاسمين. فأنتم -بطبيعة الحال- تعرفون أن تلميذين في الصف الخامس الابتدائي لا يقدران على كتابة رسائل بهذا الجمال وهذه السّلاسة. ولكني على ثقة من أنكم لو جمعتم الرسائل التي تكتبونها لاصدقائكم لكان موضوعها أكثر طرافة وتشويقاً من قصصي هذه. لانكم في كتاباتكم سوف تعكسون الحقيقة، وسوف تأتي حكاياتكم مطابقة للحقيقة والصدق.

إن هذا هو الفرق الاكبر بين الصغار والكبار، إنّ نفوسكم لم تتلوث بعد بالرياء والتحايل والتدليس.

لقد سعيتُ في هذا الكتاب إلى أن أضع نفسي في موضعكم، وأن أعيد قول الحقائق بألسنتكم، ولا أدري مدى التوفيق الذي أحرزته في ذلك. وأعتقد أنني لم أحرز الكثير، لان الكبار تفصلهم عن الاطفال سنوات كثيرة، وأن كل لحظة من هذه السنوات تحمل الكثير من التغييرات في روح وفكر الإنسان، كما تغطي الكثير من الاشياء بضباب النسيان.

في الحقيقة لقد شاركت هذه الرواية المبنيّة على رسائل أحمد وزينب في مسابقة الكتابة للاطفال، ونالت الجائزة الاولى.

إن الانتقادات التي سقتها في هذا الكتاب تشبه النصائح التي يسديها الكبار للصّغار .. وأن الكبار لن تسرّهم كثيراً قراءة هذه القصص، ولكن ما العمل؟ إنه لمن الإنصاف والواقعية أن يبحث الإنسان عن أخطائه، وأن يعترف بالعيوب التي يراها الناس فيه ويتحدثون عنها.

ثمة موضوع آخر ينبغي أن أكتب لكم عنه: لقد نظرت إليكم **-يا صغاري الأعزاء-** في هذا الكتاب، ومن خلال هذه القصص، بمنظار الكبار، ومن خلال ذلك حاولت أن أعبّر عن الموضوعات بلسانكم، ولهذا فسوف تدركون وجهة نظري كاملة، وسوف تفهمون ما رميت إلى التعبير عنه.

لقد كان ما أردته، وما آمل به هو أن لا تتحول قلوبكم الصغيرة النقية الصافية كالمرآة، بعد إدراك هذه المفاسد، إلى اقتدائها والتمثل بها.. وإن تفطنوا إلى أن العمل القبيح هو عمل قبيح، سواء صدر عن المعلم.. أو عن والد الطفل أو والدته اللذين هما أعزّ الناس لديه.. وأن تأخذوا العبرة ولا تنساقوا في دروب الأعمال القبيحة أبداً...

وفي النهاية أتمنى لكم التوفيق.

عزيز نيسين

دار الجليل للطباعة والنشر
دمشق ـ ص.ب ٤٦٤٨
هاتف ٤١٥٠٨٩